مُعَايشة القُرآن الكريم

"نموذج تدبر ومنهج حياة"

المؤلف

بلال محمود طلب

(١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م)

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

رقم الإيداع: ٢٠١٦/١٠٩٥١

منافذ البيع

جمعية عليين : ٤٧ ش نعمان جمعة ـ الحى الثانى ـ مدينة العبور
مكتبة المدينة : أمام سنتر العبور ـ الحى الأول ـ مدينة العبور

للتواصل

أرقام التليفونات : ٠١١١٧٠٩٨٦٩ _ ٠١٠١١٣٦٩٨٢٤
صفحة الفيس بوك : معايشة القرآن الكريم
البريد الإلكترونى : belalte777@yahoo.com


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه، وبعد...

بحكم دراستى أراجع كتب التفسير وأكثر من الاطلاع فيها، محاولا فهم القرآن الكريم، والمحاور التى يدور حديثه عنها، بل إنى خصصت سنة كاملة للقرآن الكريم لا أقرأ إلا فى كتب التفسير، تتبعت فيها القرآن الآية آية، أقف مع أقوال المفسرين فيها، والمعانى التى يدور القرآن حولها.

وما زلت بعد هذه التجربة أتابع النظر فى القرآن الكريم، وأقلب فى كتب التفسير، وبعد فترة سألت نفسى سؤالين :

الأول : ماذا بعد كل ما قيل فى التفسير؟ وأغلب ما يقال الآن فيه هو تكرار لما سبق قوله، واستدعاء للماضى دون إضافة، فلا تكاد تفتح كتابامن كتب التفسير المعاصرة إلا وتجد نفس الأقوال ونفس الاختلاف، اللهم إلا ما قل من محاولات جدية أضافت جديدا وأفادت علما.

الثانى : ماذا عن عموم المسلمين؟ ماذا عن الذين لم يؤتَوا حظا من التخصص الذى يمكّنهم من القراءة فى كتب التفسير، والمهارة فى التعامل مع لغة المفسرين، ومناهجهم المختلفة فى العرض والتفسير؟ ماذا عن موقفهم من كتاب ربهم وهم لا يعرفون معنى ما يقرءون؟ فكيف به يعملون؟

وللإجابة على هذين السؤالين وجدت أن الحل هو تدبر القرآن الكريم، وبذل قصارى الجهد فى التفكير وإمعان النظر فيه، وأنه الوسيلة إلى إضافة الجديد واستخراج ما لم يستخرجه السابقون، لا سيما إذا كان المتدبرون من ذوى التخصص فى اللغة والتفسير وعلوم الشريعة الإسلامية الغراء.

كما أن التدبر يصلح أن يكون وسيلة لعموم المسلمين الذى يحتاجون إلى التعامل مع كتاب ربهم دون أن يؤتَوا من العلم ما يجعلهم يتعاملون مع كتب التفسير المختلفة بنفس مهارة المتخصصين.

ولقد منّ الله تعالى علّى حين فكرت فى وضع نموذج لتدبر القرآن الكريم، أقدمه للناس ليتفاعلوا مع كتاب ربهم، فما هو إلا آلية للتدبر والتحليل والوقوف أمام الآية بمزيد من التفكر ليتحقق به معايشة القرآن الكريم.

وضعت نموذج (التحليل المنظومى والنموذج الحضارى) وبدأت أدرب بعض أصحابى وتلاميذى عليه، وبعضهم ممن درسوا فى الأزهر وغيره وأوتوا نصيبا من التخصص، وأغلبهم من ذوى الثقافة والتعليم فى تخصصات أخرى، ويتمتعون بقدر من الذكاء والمعرفة التعليمية التى تمكنهم من التفاعل والتجاوب مع هذا النموذج.

جربت هذا النموذج معهم لأرى مدى نجاحه والأخطاء التى يمكن أن تكون فيه لتعديله وتطويره، تاركا للتجربة هى التى تتكلم، وللمتدربين هم الذين يحكمون ويقيّمون النموذج.

ولقد كانت التجربة بفضل الله تعالى ناجحة من حيث الجملة، وقد خرجت منها بما يلى:

١- جربت هذا الأمر مع أول مجموعة أدربها على فهم النموذج واستعماله فى تدبر القرآن الكريم، فتجاوبوا معه وخرجوا يعرفون كيف يستعملونه، ناوين أن يعقدوا ورشات عمل مستمرة لتدبر القرآن بهذا النموذج.

٢- ولما رأيت النجاح مع هذه المجموعة والتجاوب مع النموذج عزمت على تكرار التجربة مع مجموعة أخرى، وقد كان، فدربت عليه إلى هذا الحين ثلاث مجموعات أخرى غير المجموعة الأولى، وكلها بفضل الله تعالى كانت نتائجها لا تختلف عن نتيجة المجموعة الأولى.

٣- بعد التدريب على استعمال نموذج (التحليل المنظومى والنموذج الحضارى) لم تنقطع علاقة المجموعات التى تدربت عليه بانتهاء الدورة التدريبية إلا بعض الأفراد لظروفهم الخاصة بوقتهم وانشغالهم، بل كانت المجموعات تلتحق بورشات

العمـل المنعقدة لتدبر القرآن الكريم مع إخوانهم وأخواتهم، فكان الأمر أكثر إثراء لهم فى التدريب على تدبر القرآن واستخراج كنوزه.

٤- قمنا بوضع خطة أولية فى ورشـات العمل لإنجاز جزء عم تدبرا له باسـتعمال هذا النموذج، ليكون نقطة بداية للانطلاق إلى اسـتكمال المسيرة مع القرآن كله، وقد تم لنا هذا الأمر وأوشك جزء عم على الانتهاء بإذن الله تعالى.

٥- ممـا يميز هـذه التجربة (الدورات التدريبيـة على النموذج، ثم ورشـات العمل) أن أغلب المشـاركين بها من غير المتخصصين فى العلوم الشرعية، وهذا يعنى بناء على واقع التجربة - أن النموذج قد أجاب على السؤال الثانى الذى سبق، وأنه قد ساهم - ولو بجزء - لسـد هـذا الاحتياج الخاص بعموم المسـلمين الذين يجب أن يرتبطوا بكتاب الله تعالى، وأن يتفاعلوا مع آياته.

٦- كـما أن بعـض إخواننا من طلبـة العلم المتخصصـين قد وجد فى هـذا النموذج وفى منتجاته ما يشـبع بغيته وما يضيف له جديدا من معانى القرآن الكريم، وما يضيف جديـدا بصناعـة واقع صحيح ينبثـق فى تصوراتـه ومفرداته وإجراءاتـه من القرآن الكريم.

خصائـص هـذا النمـوذج:

١- من خصائص هذا النموذج أنه يهتم بالناحية العملية فى تحويل تعاليم القرآن الكريم ورسـائله إلى إجراءات عملية محددة، ومهـارات يمكن التدريب عليها، وقيم يجب التربيـة عليهـا، انطلاقا من قول أم المؤمنين عائشـة رضى الله عنها حين سـئلت عن خلق النبى ﷺ: «كان خلقه القرآن»[1].

١- رواه أحمـد : المسند (٤٢/ ١٨٣- رقـم ٢٥٣٠٢) طبعـة الرسـالة - تحقيق شـعيب الأرنؤوط وغيره - الطبعـة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، وقـد صحـح إسـناده المحقق. وهو جـزء من حديث رواه مسـلم بلفظ «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ كَانَ الْقُرْآنَ» من كتاب صلاة المسـافرين وقصرها - باب جامع صلاة اللَيل ومن نَام عنه أو مرض، صحيح مسلم بشرح النووى (٣/ ٢٨٠ - ق ٧٤٦) دار الحديث - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م - تحقيق عصام الصبابطى وغيره.

فتحويـل القـرآن إلى واقع عملى وإجراءات ومهارات محددة هو ما ينبغى أن نهتم به، وأن نعطيه عناية خاصة لعلاج واقع المسلمين ومعالجة الآفات التى أصابت المجتمع المسلم.

٢- هـذا النمـوذج مجرد آلية للتحليل من خلال وحداته الثمانية، ثم يترك للعقل الإمعان والتفكـر، وكأنه يطرح أسـئلة على الورشـة التى تتدبر لتُجرى نقاشـا حول اللفظة القرآنية أو الآية لكى تجد إجابات على هذه الأسئلة.

ولذلك فإن هذا النموذج يعتمد على أمرين لتفعيله بشكل جيد :

الأول : التفكير وإمعان النظر وبذل قصارى الجهد فى التدبر والتأمل.

الثانى : العمل الجماعى من خلال ورشة عمل بين مجموعة من المتعلمين ليتناقشوا فى الآية الكريمة، ويحاولوا إيجاد إجابات على أسئلة يطرحها النموذج.

فقد وضعت النموذج فى الأسـاس ليطبق بهذه الطريقـة فى التفكر والعمل الجماعى، وقد حقق نجاحه من خلال نتائجه فى الواقع واستمتاع المتدربين به.

وهـذا لا يعنـى أنـه لا يصلـح أداة للتدبر من خـلال تفكر فردى، ولكن اسـتخدامه للشـخص الواحـد يحتـاج إلى مهارة أكثر ووقـت للتعامل معه، فإذا ما اعتـاد الفرد على اسـتعماله فى مجموعة عمل فترة من الوقت اكتسب المهارة فى التعامل معه بشكل فردى، وهذا الوقت قد يطول أو يقصر حسب إمكانات الفرد وقدرته على الاستيعاب، فالفروق الفردية فى استعمال هذا النموذج مما يميزه حتى فى العمل الجماعى داخل الورشة.

ولكن نتائج اسـتعماله الفردى لن تكون أفضل من نتائج العمل الجماعى الذى يثريه النقـاش والحـوار وطـرح الأسـئلة ومحاولة الإجابـة عليهـا، والأخذ والـرد فى الكلام، وتبـادل الأفكار بين المجموعـة، فالأفكار تتلاقح لتولد أفكارا وأفـكارا أنضج وأقرب إلى الصواب.

وليس هذا مجرد كلام نظرى أقوله من تصورى ومخيلتى، بل هو ما أثبتته كل التجارب السابقة مع مجموعات العمل ممن تدربوا على التدبر بهذا النموذج.

٣- كما أن هذا النموذج فى وحداته الثمانية لا ينحو ـ فى أغلبه ـ منحى المصطلحات والألفاظ المتخصصة فى علوم الشريعة، بل مصطلحاته فى أغلبها عادية يعرف أصل معناها أى متعلم، ويبقى فقط شرح كيفية تفعيلها من خلال التدريب على النموذج.

خذ مثالا على ذلك : (العلاقات) وهى تشكل وحدة كاملة من وحدات النموذج، وتعنى البحث عن العلاقات بين الجمل القرآنية فى الآية الواحدة، ثم بين الآيات، ثم العلاقات بين السور.

فكأنها تطرح أسئلة : لماذا جاءت هذه الآية بعد تلك؟

لماذا اشتملت هذه الآية على هذه المجموعة من التعاليم التى تفيد فى ظاهرها موضوعات مختلفة؟

لماذا ربطت السورة بين هذين الموضوعين، أو هذه الموضوعات المختلفة؟

لماذا جاء ذكر كذا بعد كذا؟

وهل ذكر هذا الأمر بعد ذاك الموضوع يسهم فى تكوين صورة متكاملة عن الموضوع؟ وكيف يكون ذلك؟

كلها أسئلة تطرحها وحدة العلاقات فى نموذج (التحليل المنظومى والنموذج الحضارى) وعلى المجموعة التى تتدبر القرآن داخل الورشة أن تحاول إيجاد إجابات عليها، بل وتطرح أسئلة أخرى مع إجاباتها، وليس هذا كما يتصور البعض بالأمر العسير، بل ثبت عمليا أن التدبر فى إيجاد العلاقات أمر ممكن، وأحيانا مع قليل من التفكر تصل المجموعة إلى إجابات هائلة، وتستخرج كنوزا من المعرفة والمعانى والإيحاءات والرسائل القرآنية من خلال ربط الآية أو السورة بين موضوعات مختلفة.

وكل ذلك سوف يتضح أكثر بالأمثلة عند شرح العلاقات فى هذا النموذج.

٤- يهتم هذا النموذج بالجانب المقاصدى للقرآن الكريم، وإبراز القيم المقاصدية الكلية والجزئية، وفهم الأحكام القرآنية غير معزولة عن مقاصدها وأهدافها وحِكمها التى تراد منها، فالقرآن لم يعرض الأحكام أبدا بمعزل عن المقاصد منها

كما تعرضها كتب الفقه، بل لا تكاد تخلو الآية من مقصد أو أكثر، إما بالنص عليه أو بالاستنباط، وما علينا إلا أن نتأمل ونتدبر لنعرف.

سبب التسمية :

آثرت هذه التسمية (التحليل المنظومى والنموذج الحضارى) لأنها تعبر عن طريقة خاصة فى التفكير وإمعان النظر طبقا للنموذج.

فهى **أولا :** طريقة تحليلية، حيث تحلل الآية إلى عناصرها التى تكونت منها، فتقف مع كل لفظة وجملة قرآنية، تستدعى ما بها من إيحاءات ومعان.

ثانيا : هى طريقة منظومية، يعنى لا تفكر فى الآية وتتدبرها منفصلة عن سياقها، بل تضع الآية فى سياقها المنظومى بين الآيات قبلها وبعدها، ثم فى سياق القرآن كله تستدعى الآيات الأخرى وطريقة استعمال القرآن لهذه اللفظة أو العبارة.

وعكس التفكير المنظومى هو التفكير الجزئى الذى يولد السطحية وعدم الفهم المتكامل للموضوع.

فمن كان تفكيره فى الآية مجرد أن يعرف معانى المفردات والأحكام التى اشتملت عليها الآية دون ربط فيما بينها، وربط فيما بينها وبين غيرها من الآيات السابقة والتالية، وربط فيما بينها وبين القرآن كله ـ فمن كان تفكيره هكذا فقد أخذ جزءا من الصورة، بل ربما أخذ هذا الجزء بفهم معيب، ولم يفهم القرآن حق فهمه.

إن التفكير فى القرآن بهذه الطريقة المنظومية التى تربط بين الأجزاء بشكل يشبه النظم (كالعقد الذى يجمع حلقاتِه سلكٌ واحد، أو السبحة التى يجمع حباتها حبلٌ واحد) ينمى عقل المسلم ويرقيه، ويجعله أكثر فهما لروح الإسلام وتعاليمه، وأكثر وعيا لأولوياته ومقاصده.

ففهم قوله تعالى فى أول ما نزل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ لا ينفك عن قوله تعالى فى آيات كثيرة :

﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ (يونس : الآية ٩٤).

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾.

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (الإسراء : الآية ١٤).

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ (الإسراء: الآية ٤٥).

﴿ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (الإسراء: الآية ٧١).

﴿ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ (الإسراء : الآية ٩٣).

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ (الإسراء : الآية ١٠٦).

﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ (المزمل : الآية ٢٠).

استدعاء كل هذه الآيات يجعل المسلم يكوّن فى عقله منظومة حضارية عن القراءة وأهميتها، ليس فى الدنيا فحسب، بل فى الدارين الدنيا والآخرة.

ففهم الصورة الكاملة والتصور القرآنى المتكامل عن الموضوع لن يتأتى إلا بهذه الطريقة المنظومية فى التفكير.

ويستطيع المسلم المتعلم ـ ولو كان غير متخصص فى العلوم الشرعية ـ أن يتتبع هذه الآيات من خلال استخدام (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) للشيخ محمد فؤاد عبد الباقى، ويضعها أمامه جميعا، ثم يطلق لفكره العنان فى التدبر والتأمل والمناقشة والحوار، وساعتها ستكون النتائج مبهرة.

ومن جرّب هذا من إخواننا يعرف معنى ما أقوله وقد ذاق طعم النتائج بالفعل.

ثالثا : يبقى فى فهم اسم النموذج الجزء الأخير منه (النموذج الحضارى) وهو يعبر عن الوحدة الثامنة، وهى تمثل جوهرة التاج فى النموذج كله، ووضعها فى منتصف النموذج ـ كما سيأتى فى الرسم التخطيطى للنموذج ـ يعبر عن أهمية هذه الوحدة وقيمتها فى النموذج، وأن كل الوحدات السبع السابقة عليها ينبغى أن تصب فى هذه الوحدة.

ولذلك آثرت أن أدخل اسم هذه الوحدة فى عنوان النموذج، وسوف يأتى بالشرح والأمثلة ماذا نقصد بالنموذج الحضارى. وإنما المقصود هنا فقط إبراز سبب التسمية.

كلمة عن تدبر القرآن الكريم :

لا شك أن التفسير للمتخصصين ممن حباهم الله تعالى واختارهم للتفقه فى الدين وطلب علوم شريعته حتى صاروا علماء يستطيعون تفسير القرآن الكريم.

وهناك طائفة أقل فى المنزلة من العلماء ولكنهمأكثر عددا منهم، وهم طلبة العلم الشرعى، حيث يستطيعون التعامل مع كتب التفسير والقراءة فيها وفهم لغتها ومنهجها، وما يمكن أن يؤخذ منها وأن يترك، وبعضهم تدرَّج فى الطلب والتخصص لدرجة أنه يقدر على الترجيح بين الأقوال والاختلافات فى الآية، فهؤلاء وإن لم يصلوا إلى مرتبة أنهم يقدرون أن يفسروا القرآن إلا أنهم يستطيعون التعامل مع ما قيل وما كتب فى التفسير.

وكل من الطائفتين السابقتين ـ العلماء والطلبة ـ لا يشكلون أغلب المسلمين، بل لا يجاوزون معشار المسلمين، فماذا عن الأعم الأغلب من جماهير المسلمين؟ كيف يتعاملون مع هذا الكتاب الذى نزل لهدايتهم؟

ماذا عن عموم المسلمين الذين يجب ربطهم بالقرآن الكريم ينهلون منه كما ينهل غيرهم؟

لقد أنزل الله كتابه ليكون نفعا للناس كلهم، وليقرأه كل المسلمين ويتدبروا آياته، فليست قراءة القرآن للعلماء وطلبة العلم الشرعى فحسب، بل دعا القرآن نفسُه والنبىّ ﷺ عموم المسلمين إلى مداومة قراءة القرآن والاستماع إليه بإنصات.

* قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء: الآية ١٠٦).

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل : الآية ٤).

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ (المزمل : الآية ٢٠).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾ (فاطر : الآية ٢٩).

وقال ﷺ «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَعَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ**»[٢] والنصوص فى ذلك كثيرة ومعلومة.

وإذا كان الإسلام ـ قرآنا وسنة ـ قد دعا إلى القراءة واعتبرها من أفضل ما يتقرب به المسلم إلى الله تعالى فهل هى قراءة بدون تدبر وتأمل؟

لا شك أن الانتفاع بقراءة القرآن الكريم لن يقع على الوجه الأمثل الذى يريده الله تعالى بدون فهم لمعانيه، ووعى بما يأمر الله به وينهى عنه، ليحصل بذلك الامتثال لأوامر الله تعالى، وحصول التدين الصحيح الذى يريده الله منا، وأغلب الذين يقرءونالقرآن من غير المتخصصين، فماذا يفعلون؟

المخرج ـ إذن ـ هو التدبر ومعايشة آيات القرآن الكريم، وأن يحاول المسلم التأمل بما أوتى من فهم وعقل، يستوى فى ذلك العقل مع العلماء والمتخصصين، وليس كل مسلم مطالبا بأن يكون متخصصا فى علوم الشريعة والتفسير لكى يقرأ القرآن، بل هو مطالب بأن يفهم ما يقرأ ويعى ما يُتلى، ويحاول أن يُلقِى سمعه للتلاوة، وأن يكون قلبه حاضرا وعقله متدبرا أثناء تلاوته أو استماعه للقرآن، وسوف يحصل الكثير من الإيمان والفهم بمجرد فعل ذلك، الأمر ليس عسيرا، على المسلم فقط أن يتدبر وسوف يجد ثمرة تدبره فى حلاوة الإيمان، وفى لذة القرآن، قال تعالى :

٢- رواه البخارى : التفسير ـ باب سورة عبس، انظر صحيح البخارى مع فتح البارى لابن حجر (٨/ ٥٦٠ـ ق ٤٩٣٧) دارالريان ـ بترقيم محمد فؤاد عبد الباقى وتعليق محب الدين الخطيب ـ الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م. ورواه مسلم باللفظ المذكور : صلاة المسافرين وقصرها ـ باب فضل الماهر بالقرآن والذى يتتعتع فيه (٣/ ٣٤٣ـ ق ٧٩٨).

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال : الآية ٢).

فأين المسلمون من زيادة الإيمان بسماع القرآن؟ لن يكون ذلك إلا بتدبر القرآن الكريم!

لقد دعا القرآن الكريم قارئيه ومستمعيه إلى التدبر والتأمل فقال تعالى :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: الآية ٨٢).

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد : الآية ٢٤).

فجعل الله الناس مع القرآن ـ فى هذه الآية ـ على حالين : حال المتدبرين الواعين لمعانيه المتأملين لعجائبه، فإن لم يكونوا كذلك فليس لهم إلا الحال الثانية:

قلوب قُفْل وعقول غُفْل وهم أغلب الناس!!! وياحسرة على العباد !!!

وفى الآية عظيمة وبنظم بديع يبين الله تعالى سبب نزول القرآن :

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص: الآية ٢٩).

فما أعظم هذه الآية فى بيان أهمية التدبر لعموم الناس كلهم!

إن الغاية من نزول القرآن طبقا لهذه الآية الكريمة هى التدبر ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾.

إن بركة القرآن وخيره الذى يجب أن يفيض على الناس مفتاحه التدبر ﴿مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾.

إن المتدبرين هم ﴿ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

فأصحاب العقول السليمة فقط هم من يتدبرون القرآن ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ وما وراء ذلك عقول سقيمة قد جُعلت عليها أقفالها.

وخلاصة الأمر أن القرآن نزل لنتدبره. وأننا نقرؤه لنتدبره. وأننا نستمع إليه وننصت لنتدبره. وأننا نحفظ آياته لنقرأها عن ظهر قلب لنتدبره أكثر. وأننا نعلمه أولادنا من أجل أن يأتى اليوم ليقرءوه بتدبر. فلن ينتفع بالقرآن إلا من تدبره.

ولن يفهم الإسـلام إلا من تدبر القرآن، ومن لم يعش مع القرآن فلا يصدِّع رءوسـنا بالحديث عن الإسـلام، فمحال أن يفهم الإسـلام من لم يفهم كتاب الله، ومحال أن يفهم كتاب الله من لم يعش معه بعقله وقلبه، فالقرآن لن يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك.

ولا يمكـن أن يحتـج أحـد بـأن عمـوم الناس ليـس من حقهـم تفهم معانـى القرآن بمفردهم لأنهم ليسـوا من ذوى العلم، بل عليهم أن يسـألوا العلماء عن معانى القـرآن ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (الأنبياء : الآية ٧).

لا يجـوز أن يقول أحد ذلك؛ لأن نصـوص القرآن تدعو إلى التدبر لكل الناس، وإلا فلماذا حث الشرع على قراءة القرآن لكل أحد، ولم يخص عالما من غيره؟!

وتدبر القرآن لا يعنى أن يتقوّل المسلم على الله بما لا يعلم، ولا أن يخوض فى آيات الله بغير علم، فهذا لا يجوز بلا شك، ولكن كل ما يعنيه هو استحضار القلب والعـقل عند قراءتـه، والتفـاعل معه بكليته، عسـى أن يزداد إيمانه، ويتفهم من معـانيه ما سهل عليه فهمه، ويبقى ما غمض عليه بسبب قلة علمه متروكا لسؤال العلماء إن أراد.

الأمـر ليس عسـيرا، وكثير من ألفاظ القـرآن وآياته لا يحتاج إلى تفسـير، فقط يحتاج المرء معه إلى وعى وتدبر لينتفع بالقرآن.

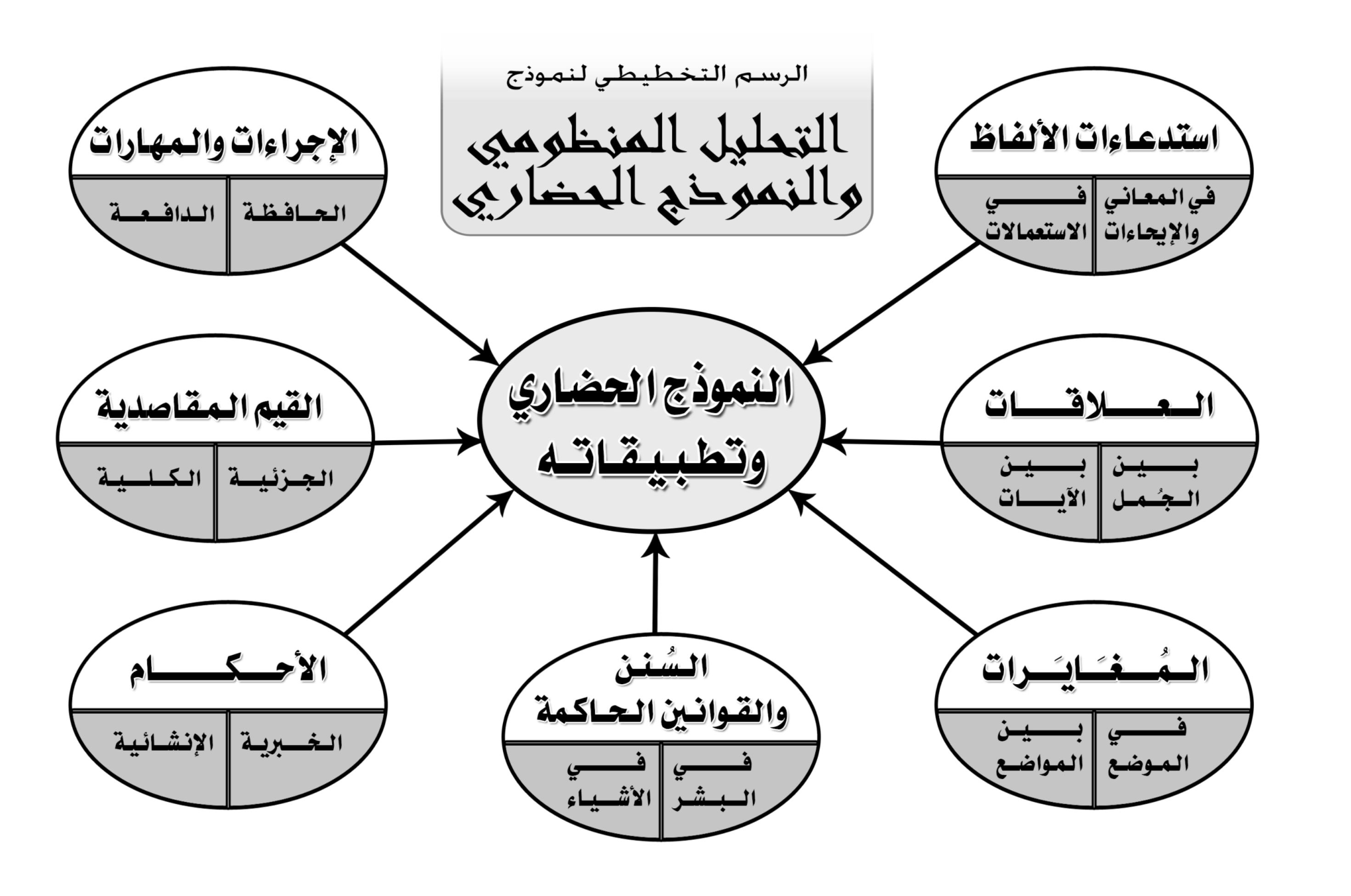
هـذا عـن تدبر القرآن بمجرد تلاوته أو الاسـتماع إليه، أما التدبـر الذى نقصده وفق النموذج الذى وضعناه لذلك فهو أعلى مستوى من مجرد التلاوة أو الاستماع بتمعن؛ إذ إنه يعتمد على ثلاثة أمور :

الأول : تخصيص الآية أو قليل من الآيات فى جلسة التدبر والوقوف أمامها طويلا.

الثانـى : أن يكون ذلك من خلال ورشـة عمل بين مجموعة مـن المتدبرين، يتبادلون أطـراف الحديـث حول الآية موضـوع التدبر، أو من خلال عصـف ذهنى فردى ولكن بعد التدرب على استعمال نموذج التدبر بمهارة.

الثالـث : اتبـاع منهجية هذا النمـوذج فى وحداته الثمانية والإجابة على الأسـئلة التى تطرحها كل وحدة منه.

***


الرسم التخطيطي لنموذج
التحليل المنظومي والنموذج الحضاري
النموذج الحضاري وتطبيقاته
استدعاءات الألفاظ
في المعاني والإيحاءات
في الاستعمالات
العلاقات
بين الجُمل
بين الآيات
المُغايَرات
في الموضع
بين المواضع
السُنن والقوانين الحاكمة
في البشر
في الأشياء
الأحكام
الخبرية
الإنشائية
القيم المقاصدية
الجزئية
الكلية
الإجراءات والمهارات
الحافظة
الدافعة

الفصـــل الأول

الوحدة الأولى مـن النموذج (استدعـاءات الألفـاظ في المعانى والإيحـاءات في الاستعمالات

القرآن الكريم يتكون من ألفاظ مفردة لتكوّن جملا مركبة، وقد تشكِّل الجملة الواحدة الآيـة كاملة، وقـد تتألف الآية من أكثر من جملة. كل ذلك يشـمله كلمـة (الألفاظ) فى النموذج. اللفظة الواحدة، والجملة أو العبارة، والآية الكاملة.

أولا : استدعـاءات الألفـاظ فـى المعانــى والإيحــاءات :

على المتدبر أن ينطق اللفظة أو الجملة أو الآية ويسـتدعى معانيها وإيحاءاتها التى تقع فى نفسه.

وإذا كان معنى الكلمة غامضا فعليه أن يستعين بأى كتاب تفسير أو معجم لغوى أو كتاب فى شرح مفردات القرآن الكريم، مثل كتاب (كلمات القرآن تفسير وبيان) للشيخ حسنين مخلوف ـ ليعرف المعنى اللغوى للكلمة.

والتدبر هنا يختلف عن التفسـير، فالتفسير يعنى تفسير الكلمة القرآنية أو الجملة من حيث أصل معناها، وما قاله المفسرون فى المقصود منها.

أمـا التدبـر هنا فهو يعنى الوقـوف أمام الكلمة التى كثيرا ما يكـون معناها واضحا، واسـتدعاء الإيحـاءات التى ترميها الكلمـة فى النفس، وما تلقيه من ظـلال على العقل. فقط عليك أن تتمعن وتترك لنفسك العنان فى التفكر.

تطبيقـات عمليـة علـى استدعـاءات الألفـاظ :

* كلمــة (رجــل أو رجــال):

مثال ذلك : كلمة (رجل) أو (رجال).

حـين تقرؤهـا فى القـرآن فهـى لا تحتـاج إلى تفسـير ولا إلى معجـم لتعـرف معناهـا الأصلى.

فقط قف أمامها فماذا تستدعى الكلمة فى نفسك من معان وإيحاءات؟

إنها لا شك تستدعى :

القوة　　　الفحولة　　　الخشونة　　　الشهامة

المواقف النبيلة　　　قيادة وحسن تصرف　　　أهل للحرب والقتال

قلت لك : إن الأمر سهل، ولا يحتاج منك إلا إلى تأمل وتدبر فى الكلمة.

* كلمة (امــرأة أو نســاء):

خذ مثالا آخر عكس ذلك : كلمة (امرأة) أو (نساء) فى القرآن.

ماذا تستدعى فى نفسك؟

ضعف　　　رقة　　　نعومة　　　جمال　　　غَيرة

عِرض وشرف　　　كثرة كلام

إن كل هــذه الإيحاءات والمعانى والظلال المضافـة والملازمة التى تلقيها الكلمتان فى النفس الإنسانية يساهم كثيرا فى معايشة الآية، بل فى فهمها على الوجه الأمثل.

فـإذا قرأت قولـه تعالى ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ فهمـت الرجال والرجولة، فالرجـال بدون هــذه المعانى ليسـوا رجالا، وبدون فهـم إيحاءات النسـاء ومعانى هذه اللفظة لا يمكن أن تفهم قوامتك عليها ومفاتيح المرأة لحسن قوامتها.

* **كلمـة (قوامـون) :**

كذلـك كلمـة ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ فى نفـس الآيـة إذا تأملـت فى اسـتدعاءات المعانـى والإيحاءات فيها فماذا تجد؟

القوامة من القيام والقيام يعنى النشاط الهمة الحركة

اليقظة (فالقائم لا ينام) الاستعداد

كل هـذه الإيحـــاءات للكلمـــة ينبغى أن تكـون فى منظومة تفكيرنا لكـى نفهم معنى القوامة حقا.

لا شـــك أن الـقـرآن الكريـم ينتقى ألفـاظه بدقـة وعنايـة ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: الآية ٤٢) والوقوف أمام إيحاءات الألفاظ أمر عظيم فى فهم القرآن وتدبره.

قلـت لـك : فقط قـف متأملا أمام اللفظة أو الجملة، وسـوف تجـد الكثير من الخير، فالأمر ليس عسيرا، بل يحتاج إلى عصف ذهنى وتفكر وتمعن.

* **كلمـة (بحـر) :**

قـــس على هذا أيضـــا كلمة (بحر) فى كل الآيات التى ترد فـيها هذه اللفظة، كقوله تعـالى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ (الإسراء : الآية ٦٧).

فهـذه الآيـة لا يمكن التعايش معهـا وفهم المراد منها حقا واسـتحضار الحالة، حالة الـضر فى البحـر، حالـة أن تأتى ريح أو أى خطـر وأنت فى البحر ـ مـا لم تعش مع كلمة البحر نفسها، وتتخيل إيحاءات الكلمة، فالبحر يعنى :

مهلكة انقطاع عن البشر مياه عميقة غرق سفينة

قلـة أسـباب النجـاة عنـد استشـعار الخطـر بعد اسـتحضار هـذه المعانـى فى البحر واستحضار صورة البحر اقرأ الآية مرة أخرى.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ (الإسراء : الآية ٦٧).

*** ألفاظ المواقيت فى القرآن :**

يُكثر الله تعالى فى كتابه من ذكر مظاهر الكون من ليل ونهار وشمس وقمر وغير ذلك، بل يقسم بها فى بدايات السور : ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾.

﴿وَٱلْعَصْرِ﴾.

﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾.

وهذه الظواهر الكونية تدل على أوقات معينة، أو يرتبط بطلوعها وغيابها معرفة الأوقات والشهور والسنين، فالليل والنهار والفجر والضحى والعصر أوقات معلومة.

والشمس والقمر يرتبط بهما معرفة حسابات الزمن، فما دلالة ذلك ومعانيه؟ وما إيحاءاته فى النفس إذا تدبرناه ؟

أهمية هذه الظواهر الكونية فى حياتنا. قيمة الوقت والزمن.

أهمية الحساب. حسن استغلال الوقت.

هذا من حيث عموم هذه المواقيت، أما من حيث خصوص كل كلمة فإن لها إيحاءات خاصة فى النفس، فمثلا كلمة (الفجر) إيحاءاتها عند التدبر :

وقت بداية النهار. وقت يكون الجو فيه نقيا.

وقت نشاط وهمة. وقت صلاة وذكر.

تشهده الملائكة.

كل هذه الإيحاءات تستدعيها نفس المسلم عند قراءة ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ فيحدث التفاعل مع اللفظة القرآنية ومعرفة قيمة الفجر، ولماذا أقسم الله تعالى به؟

إن تدبر الألفاظ بهذه الطريقة يرسخ القيم الحقيقية فى النفس، ويبنى التصورات الصحيحة فى العقول عن عالم البشر والأشياء، فيسجل المتدبر هذه القيم فى وحدة (القيم المقاصدية) التى سوف يأتى شرحها.

فقيمة الوقت يرسيها القرآن الكريم حين يكثر من ذكر هذه الظواهر الكونية ويقسم بها.

وهذا يستدعى قيما أخرى، كقيمة التدبر فى هذه الظواهر الكونية وعدم الغفلة عنها.

قيمة اكتشاف أسرارها بالبحث العلمى.

قيمة حسن استغلالها بما يجعل حياة المسلم أكثر فاعلية ونشاطا وهمة.

فالليل بخصائصه هو أفضل أوقات النوم فى بعضه، والقيام للصلاة فى بعضه الآخر لا سيما آخره.

والفجر أفضل وقت للذكر والتأمل حين ينشق النهار من الليل ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾ (يس : الآية ٣٧).

والضحى والنهار هو وقت العمل والمعاش.

وهكذا فإن التدبر لهذه الألفاظ والتفاعل معها يجعل حياة المسلم لها معنى آخر وقيمة ومكانة.

فقط عليك أن تتدبر وسوف تجد الكثير.

فليست هذه الألفاظ غامضة، ولا تحتاج إلى كتب تفسير أو معاجم لغة، بل الغموض هو غموض النفس وغفلتها عن تدبرها.

قصة عظيمة وموقف جليل يدل على أهمية التدبر للألفاظ :

قال الأصمعى : أقبلتُ ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابى جلف جاف عليق عود ـ ناقة ـ له متقلداً سيفه وبيده قوسه، فدنا وسلم.

وقال : ممن الرجل؟

قلت من بنى أصمع، قال : أنت الأصمعى؟

قلت : نعم.

قال : ومن أين أقبلت؟

قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن؛

قال : وللرحمن كلام يتلوه الآدميون؟

قلت : نعم؛

قال : فاتل على منه شيئا.

فقرأت ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ﴾ إلى قوله : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾.

فقال : يا أصمعى حسبك!!

ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطّعها بجلِدها.

وقال : أعنّى على توزيعها؛ ففرقناها على من أقبل وأدبر.

ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما ووضعهما تحت الرَّحْل وولَّى نحو البادية وهو يقول : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾.

فمقتُّ نفسى ولُمتها، وقلت : لمتنتبه لما انتبه له الأعرابى.

ثم حججت مع الرشيد، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوت رقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابى وهو ناحل مصفَرّ، فسلم علىّ وأخذ بيدى وقال : اتل على كلام الرحمن،

وأجلسنى من وراء المقام فقرأت ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ﴾ حتى وصلت إلى قوله تعالى : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾.

فقال الأعرابى : لقد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقا،

وقال : وهل غير هذا؟

قلت : نعم؛ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾.

قال فصاح الأعرابى وقال : يا سبحان الله! من الذى أغضب الجليلَ حتى حلف! ألم يصدقوه فيقوله حتى ألجأوه إلى اليمين؟

فقالها ثلاثا وخرجت بها نفسه (أبيات)[٣].

ففى هذه القصة العظيمة يظهر دور التدبر، تدبر الألفاظ وموقعه فى النفس، الأمر لا يحتاج إلى تفسير ولا إلى كبير جهد فى معرفة معانى الكلمات، بل يحتاج فقط إلى وقفة ومعايشة مع القرآن، وتدبر حالنا ويقيننا فى هذه الآية التى تبين أن الله تعالى قد كفل لنا أرزاقنا، وجعلها بيده وحده ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (هود: الآية ٦) .

لقد كان هذا المعنى هو ما وراء زهد الحسن البصرى حين سئل عن سبب زهده فقال : علمت أن عملى لا يقوم به غيرى فاشتغلت به، وعلمت أن رزقى لا يذهب إلى غيرى فاطمأن قلبى... إلى آخر ما قال.

لم يقرأ الحسن البصرى هذا المعنى فى كتاب تفسير ليس بيد أحد سواه، ولم يطلع على كنز من كنوز المعرفة والحكمة لم يطلع عليه غيره، كل ما هنا لك أنه تدبر هذا المعنى بيقين، تفاعل معه بقلبه وقرأ آيات القرآن عن الرزق، والتى تقرر وتكرر دائما أن الرزق بيد الله وحده ولن يأخذ أحد رزق أحد، وأن الله وحده هو الذى يبسطه لمن يشاء ويقْدِره لمن يشاء.

لو تدبرنا هذه المعانى وإيحاءاتها فى النفس لارتاح الناس كثيرا ورجعوا إلى ربهم خير رجعة، واطمأنت نفوسهم وابتعدوا كثيرا عن المعاصى المتعلقة بالرزق كالسرقة والرشوة والاختلاس وجحود الأمانات والعمل فى الأماكن المحرمة كأماكن الخمور والميسر.

٣- القصة ذكرها ابن قدامة فى كتابه «التوابين» (١٦٣) دار ابن حزم ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٣. وذكرها القرطبى فى تفسيره لسورة الذاريات.

الأمر لا يحتاج أكثر من تدبر عميق وتأمل ووقفة مع النفس.

فالأعرابى فى هذه القصة لم يفعل أكثر من هذا، لقد وقعت الآية من نفسه موقعا عظيما جعلته ينحر ناقته ولا يخشى رزقا بعد سماعه الآية.

ثم جاءت الآية الأخرى التى قضت عليه بسبب ما أحدثته فى نفسه من إكبار وتعظيم لمقام الله تعالى.

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾.

أقسم الله تعالى بنفسه وربوبيته للسماء والأرض أن قضية ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ حق لا مرية فيه، كما أنكم تثقون فى نطقكم حين تنطقون.

فأعظَمَ الأعرابىُّ هذا الأمر فى نفسه؛ لماذا يقسم الله تعالى على هذه القضية؟

وهل المولى تعالى بعظمته وكبريائه يحتاج إلى قسم حتى نصدقه؟

لم يستطع الأعرابى تحمل هذه المعانى ففاضت روحه ـ حسب القصة ـ إلى رب السماء والأرض.

وليس المقصود أن تفيض روح العبد إلى الله حين يقرأ القرآن، أو أن يكون أثر القرآن فى نفوسهم كأثره عند الأعرابى، وربما وقع فى القصة مبالغات لا يعنينا صحت أم لا، ولكن المقصود أن هاتين الآيتين من سورة الذاريات تحلان كثيرا من مشاكل الناس، لأن أمر الرزق من أمور المعاش التى تسيطر على حياتهم وتشغل أغلب أوقاتهم.

وعلاج الأمر كله فى هاتين الآيتين لو عقل الناس القضية!

وخلاصة الأمر أن كل ألفاظ القرآن الكريم نستطيع أن نقف أمامها بهذه المنهجية فى استدعاء معانيها وإيحاءاتها فى النفس، وكل مسلم بحسب طاقته فى الاستدعاء وحالته النفسية وقت الاستدعاء، وحسب ما أوتى من علم وفهم وخبرة وثقافة، كل ذلك يؤثر فى عملية الاستدعاء.

فلا شك أن من يقرأ القرآن وهو فى موقف اضطرار وضيق يتفاعل مع قوله تعالى ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ (النمل: الآية ٦٢) أكثر من غيره،

ويستحضر من المعانى ما لا يستحضره غيره، ويجب أن يكرر الآية ويقف أمامها ويدعو الله تعالى وهو على هذه الحال.

ومن سافر فى البحر وكاد يهلك لولا أن نجاه الله - يدرك أكثر من غيره قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (يونس : الآية ٢٢).

وكل ألفاظ القرآن وجمَله تصلح أن تكون مجالا لهذا الاستدعاء، ولكن كل واحد بحسبه كما قلنا، وما ذكرناه من أمثلة يدل على ذلك، وللتأكيد على هذه الفكرة نطبق مبدأ استدعاءات الألفاظ على سورة كاملة، ننقلها كما هى من منتجات بعض الورشات:

سورة الناس يقول الله تعالى فيها ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

واستدعاءات ألفاظها كما يلى :

قل : تحدَّثْ - أبلغْ - أنذر - أفهمْ - أعلمْ.

أعوذ : ألجأ - أعتصم - أتحصن - أتقوى.

برب : خالق - صاحب - مالك - يستحق الطاعة.

يوسوس : يلح - يصر - يستدرج للمعصية - يضل.

صدور : قلوب - أرواح - نفوس - وعاء - مكان.

الجنة : الجن - مخلوقات أخرى - لهم رسالة مثلنا - شمولية - إحاطة - قدرة.

ثانيا : استدعاءات الألفاظ فى الاستعمالات :

بعد أن تقف أمام اللفظة والعبارة القرآنية تستدعى معانيها وإيحاءاتها تأتى هذه المرحلة الخاصة باستدعاءات استعمالات القرآن للألفاظ والجمل والآيات.

بمعنى أنك تتتبع اللفظة القرآنية أو التعبير القرآنى فى القرآن كله، وتجمع هذه الآيات أمامك، ثم تتأمل.

تتأمل كيف استعمل القرآن هذه اللفظة؟ وفى أى سياق يستعملها؟ هل فى مورد الذم أم المدح؟ ولماذا؟

تتأمل لماذا يأتى هذا التعبير أو هذه الآية بعد هذا السياق دائما؟

لقد وُجد من خلال الواقع أن هذه الطريقة نكتشف بها علما كبيرا فى القرآن الكريم، ويُستخرج بها عجائب قرآنية، الأمر فقط يحتاج إلى تدريب عملى.

والوسيلة التى نستخدمها فى جمع استعمالات القرآن للفظة أو التعبير هى (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) للشيخ محمد فؤاد عبد الباقى، واستعماله سهل على كل متعلم.

استعمال القرآن للأفواه :

وقفنا مرة فى ورشة معايشة نتدبر قوله تعالى ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور : الآية ١٥).

استوقفتْنا كلمة ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ ولم يقل بألسنتكم، وبدلا من أن تتعب نفسك فى الفرق بينهما ابحث عنها فى القرآن كله، وسوف تجد ما يساعدك فى الإجابة عن هذا السؤال وتكتشف الكثير كما اكتشفنا.

ما حدث هو أن فتحنا المعجم المفهرس بألفاظ القرآن، ورصدنا المواضع القرآنية التى وردت فيها كلمة الأفواه، وهى كما يلى :

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (آل عمران : الآية ١١٨).

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران : الآية ١٦٧).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ﴾ (المائدة : الآية ٤١).

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (التوبة : الآية ٨).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة : الآية ٣٠).

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (التوبة : الآية ٣٢).

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (إبراهيم : الآية ٩).

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف : الآية ٥).

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور : الآية ١٥).

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ (الأحزاب : الآية ٤).

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (يس: الآيات ٦٣-٦٥).

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الصف: الآية ٨).

وضعنا هذه الآيات أمامنا ولاحظنا أن القرآن حيث يذكر الأفواه وما تقوله الأفواه رأيت الذم والنفاق ومحاربة الإسلام والصد عن سبيل الله، فحيث ذُكرت الأفواه فانتظر طامة تقال، وهذا واضح من تأمل كل الآيات السابقة.

وكأن قوله تعالى فى الآية التى كنا نتدبرها ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم ﴾ تعنى : تقولون شيئا شديد النكارة، تفهم ذلك قبل أن تكمل الآية « ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم » نعم قبل أن تعرف نكارة هذا القول من آخر الآية تعرفها من خلال كلمة الأفواه، لأن استعمال القرآن للأفواه وما تقوله الأفواه لا يأتى إلا فى مورد الذم والنكارة والأقوال المفتراة.

وبهذا يتبين لماذا استعمل الأفواه دون الألسنة التى كثيرا ما تأتى بمعنى اللغة ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ (إبراهيم: الآية ٤).. ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: الآية ١٠٣).

أو بمعنى الذكر الحسن، أى يُذكر الإنسان بعد موته بما يُحمد ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ (مريم: الآية ٥٠). ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ (الشعراء: الآية ٨٤).

أو بمعنى العضو المعروف فى الفم ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ (طه: الآيتان ٢٧، ٢٨) ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ﴾ (القصص: الآية ٣٤).

وقد يرد فى موضع الذم أيضا ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ (النحل: الآية ١١٦)، ولكن ليس هذا غالبا فى القرآن.

الشاهد أن استعمال القرآن للأفواه بتتبع جميع الآيات يجعلنا نخرج بهذه القاعدة : حيثما ذكرت الأفواه (بصيغة الجمع هكذا) رأيت طامة عظيمة ومنكرا شديدا يقال بهذه الأفواه.

ولما تدبرنا فى سبب ذلك رأينا أن الأفواه كلٌّ بالنسبة للسان، فاللسان محله الفم، والفم يحتوى على اللسان والشفتين والحنك والأسنان وغير ذلك، وكلها مخارج للحروف وتستعمل فى الكلام، فكل هذه الأقوال المنكرة ناسبها أن يستعمل معها الأفواه ؛ فكِبر حجم الكلام وفظاعته وآثاره السلبية يتناسب مع الفم لا اللسان الذى هو أصغر.

كما أن القرآن بذلك يذم هؤلاء الذين يتكلمون بملء أفواههم ولا علم لهم بما يتكلمون به، فالكلام كذب وافتراء ولا أساس له من الصحة، ولا ينبنى على معلومات حقيقية، وبالرغم من كل ذلك يتكلمون بأفواههم، وكأن الكلام يخرج من كل مكان من الفم، وكفى بهذا ذما لهم!

بهذه الطريقة التى يتم فيها تتبُّع اللفظة القرآنية ثم التفكر فى الآيات التى وردت فيها تنكشف كثير من الأسرار والحقائق.

استعمال القرآن للفظتى (الزوج، البعل) :

الغالب فى القرآن فى عشرات الآيات أن يستعمل كلمة الزوج، كقوله تعالى ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ ﴾ (البقرة: الآية ٢٣٠).

﴿ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ﴾(البقرة: الآية ٢٣٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ (الأحزاب: الآية ٥٩).

﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا ﴾ (المجادلة: الآية ١) .

أما لفظة البعل فلم تأت إلا سبع مرات فى القرآن فى خمسة مواضع، ذُكرت ثلاث مرات فى موضع منها، وهى :

١ - ﴿ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ (الصافات: الآية ١٢٥).

٢- ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ (هـود: الآية ٧٢).

٣- ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ﴾ (البقرة: الآية ٢٢٨).

٤- ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ﴾ (النساء: الآية ١٢٨).

٥- ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ (النور: الآية ٣١).

وفور استعراض هذه الآيات بالمقارنة بالآيات الكثيرة التى ورد فيها استعمال الزوج تطرح هذه الأسئلة نفسها : ما الخصوصية للفظ البعل حتى يستعمل فى هذه الآيات الخمس؟ ولماذا هذه الآيات بالذات؟ وهل هناك فرق بين البعل والزوج؟ وهل هذا الفرق يناسبه أن يستعمل البعل فى هذه المواضع خاصة؟

الأمر يحتاج إلى تدبر مع الاستعانة بكتب اللغة لمعرفة الفرق ـ لغويا ـ بين البعل والزوج، ولذا كانت هذه هى بداية البحث...

جاء فى كتب اللغة استعمال البعل بمعنى الزوج، ولكن هناك معنى زائد على مجرد وجود العلاقة الزوجية، فالبعل هو الزوج فى حالة وجود المعاشرة الحسنة والتلاعب والحب بين الزوجين.

ففى لسان العرب : البعل الزوج، وتبعلت المرأة : أطاعت بعلها، وتبعلت له : تزينت، وامرأة حسنة التبعُّل إذا كانت مطاوعة لزوجها محبة له، والتبعل : حسن العشرة من الزوجين.

والبعال : حديث العروسين، والتباعل والبعال : ملاعبة المرء أهلَه، ومنه الحديث فى أيام التشريق «إنها أيام أكل وشرب وبعال»[٤].

٤- حديث ضعيف رواه الطبرانى من حديث ابن عباس، والدارقطنى من حديث أبى هريرة، وله طرق أخرى ولا يصح له إسناد. انظر «نصب الراية» للزيلعى (٢/ ٤٨٤ـ٤٨٥) دار الحديث. و «التلخيص الحبير» لابن حجر (٢/ ١٩٦ـ١٩٧) دار المعرفة ـ لبنان و «إرواء الغليل» للألبانى (٨/ ١٧٦ـ ق٢٥٤١) المكتب الإسلامى الطبعة الثانية ١٩٨٥. و «تمام المنة فى التعليق على فقه السنة» (٤٠٢ـ٤٠٣) للألبانى أيضا ـ المكتبة الإسلامية ـ الأردن ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ. لكن الحديث صح بدون ذكر لفظة (بعال) رواه مسلم من

والمباعلة المباشرة ـ أى بين الزوجين ـ ويقال للمرأة : هى تباعل زوجها أى تلاعبه[٥].

ومن معانى البعل أيضا السيد والرب، وهو لا يخرج عن المعنى الأول، فالزوج لما كان سيدا ومسئولا عن المرأة سمتْه العرب بعلا.

وفى اللسان أيضا : وبعل الشىء ربه ومالكه، والبعل : صنم، سمى بذلك لعبادتهم إياه كأنه ربهم، يقال : أنا بعل هذا الشىء أى ربه ومالكه.

إذن معنى البعل يدور حول : السيد أو الزوج المباعل، أى فى حالة الود والقرب والاستمتاع بالزوجة، لذلك لا يسمى الزوج بعلا حتى يدخل بالمرأة ويكون مباعلا لها، أما بمجرد عقد الزواج دون بناء يسمى زوجا فقط.

فالبعل بمعنى الزوج مع زيادة فى المعنى، فهو زوج فى حالة معينة، حالة المباعلة والملاعبة والتصافى بين الزوجين ورغبته فى زوجته.

بعد ذلك نجيب على هذا السؤال : لماذا جاءت لفظة بعل فى هذه الآيات تحديدا؟

الآيةالأولى ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أى إلهًا، خارج سياق الحديث عن العلاقة الزوجية، ولا إشكالية فيها؛ فهم سَمّوه بعلا لعبادتهم له، فجعلوه سيدا لهم.

ومن هذا الباب أيضا الآية الثانية ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ تقصد سيدها، فهاتان الآيتان من حكاية الأمم السابقة، حيث كانوا يسمون السيد بعلا، سواء كان إلها كما فى الآية الأولى أم سيدا كما فى الآية الثانية.

قال ابن عاشور فى تفسيره : «وأصل البعل فى كلامهم السيد، وهو كلمة سامية قديمة، فقد سمى الكنعانيون الفينيقيون معبودهم بعلا، قال تعالى ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ وسمى به الزوج لأنه ملك أمر عصمة زوجه، ولأن الزوج كان يعتبر مالكا للمرأة وسيدا لها، فكان حقيقا بهذا الاسم، ثم لما ارتقى نظام العائلة

حديث نبيشة الهذلى بلفظ «أيام التشريق أيام أكل وشرب» : كتاب الصوم ـ باب تحريم صوم أيام التشريق (٤/ ٢٧٢ ـ ق ١١٤١).

٥- انظر : «لسان العرب» و «القاموس المحيط» ـ مادة (بعل).

من عهد إبراهيم عليه السلام فما بعده من الشرائع أخذ معنى المِلك فى الزوجية يضعف، فأطلق العرب لفظ الزوج على كل من الرجل والمرأة للذين بينهما عصمة النكاح، وهو إطلاق عادل؛ لأن الزوج هو الذى يثنى الفرد، فصارا سواء فى الاسم، وقد عبر القرآن بهذا الاسم فى أغلب المواضع، غير التى حكى فيها أحوال الأمم الماضية، كقوله تعالى ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[6].

وجعل ابن عاشور قوله تعالى ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ وقوله ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ من باب معنى السيد، لأن معنى السيادة واضح فى خوف المرأة من نشوز الرجل وإعراضه عنها، وفى حق الرجل فى رد المرأة أثناء العدة بدون إذنها[7].

* أما قوله تعالى فى الموضع الأخير ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فواضح أن معنى المباعلة والملاعبة والجماع هو المقصود من إطلاق البعل هنا، فالمرأة تبدى زينتها لزوجها لترغِّبه فيها، فالآية حين تطلق لفظ البعل هنا تذكِّر المرأة بأنها ينبغى أن تبدى زينتها على أحسن ما تتزين به المرأة لزوجها لترغبه فيها وتجذبه إليها، وكأن الآية تشير إلى أن إبداء الزينة للزوج ليس كإبدائها لغيره من المذكورين فى الآية كالآباء والأبناء، فالزينة التى تظهر للزوج زينة من تريد أن ترغبه فيها، فهى زينة مقصودة فى ذاتها ومستحبة، أما غير الزوج من المحارم فهو إبداء للجواز ورفع الحرج؛ لأن المرأة لا تستطيع أن تخفى ما يظهر منها عادة أمام من معها فى البيت من محارمها، ولانعدام الرغبة والشهوة بين المحارم أبيح ظهور المرأة أمامهم لأمن الفتنة.

تعقيب على رأى ابن عاشور:

لقد جعل الإمام الطاهر بن عاشور قوله تعالى ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ وقوله ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ من باب السيادة، فالبعل هنا بمعنى الزوج السيد، وهو من معانى البعل كما سبق.

وربما يكون هذا صحيحا، ولكنى أرى أن البعل فى هاتين الآيتين بمعنى الزوج المباعل، من المباعلة والملاعبة التى تقع بين الزوجين.

٦- تفسير «التحرير والتنوير» لابن عاشور (٢/ ٣٩٣) دار سحنون للنشر والتوزيع ـ تونس.
٧- انظر : السابق.

لتكون كل الآيات المتعلقة بالعلاقة الزوجية فى هذه الأمة بنفس المعنى.

فالمواضع الخمسة التى ورد فيها لفظ البعل منها موضعان حكاية عن الأمم السابقة التى كانت تطلق البعل على السيد، وهذا قد اتفقنا عليه وسبق بيانه، وهما قوله تعالى ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ وقوله ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾.

أما المواضع الثلاثة الأخرى فهى :

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا ﴾

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾

والأخيرة معنى المباعلة فيها واضح وقد سبق بيانه أيضا.

أما **الأولى** والثانية فتحتاج إلى تدبر لحملها على معنى المباعلة أيضا، فقوله تعالى ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ فيه دعوة إلى الإصلاح، وأن يراجع الرجل زوجته وهى فى عدتها، فردها ومراجعتها أثناء العدة أولى من أن يتركها تنقضى عدتها وتنكح زوجا غيره.

وهذه الدعوة إلى الرد حثّت عليها الآية من وجوه :

الأول : فى قوله ﴿أَحَقُّ﴾ فجعله أولى بالمرأة من غيره.

الثانى : فى قوله ﴿بِرَدِّهِنَّ﴾ فذكّره بهذا بالحالة التى كان عليها كل من الزوجين من الود والعلاقة الطيبة، وسمى المراجعة ردا، أى الرد إلى ما كانا عليه من الصفاء.

الثالث : ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ ذِكْر الإصلاح دون غيره من المفارقة ـ فيه تذكير به وترغيب فيه، ولم تزد الآية على ذلك، فلم تقل مثلا : وإن لم يردوا إصلاحا فلا يردها.

الرابع : الضمير فى قوله ﴿أَرَادُوا﴾ فالواو تفيد الجمع، ولم يقل «أرادا» وهذا يعنى أن إرادة الإصلاح لا تقتصر على الزوجين فقط، بل فتحت الآية المجال لأطراف أخرى للإصلاح حتى يرد الرجل الزوجة إلى عصمته.

الخامس : وهو الوجه المقصود من الحديث، وهو قوله تعالى ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ فقد ذكرت الآية البعل فى هذا السياق خاصة ـ كما أرى ـ لإرشاد المرأة إلى أنه بعلها، ولها أن تتزين له، وأن يكون لها دور فى رد زوجها لها، بأن تظهر أمامه بأحسن زينة وتتبعل له، ليكون ذلك أدعى إلى ردها ومراجعتها.

ولذلك نهى الشرع الرجل أن يُخرج المرأة من البيت إذا طلقها، كما نهى المرأة أن تَخرج بنفسها، وجعل هذا الحكم من حدود الله التى لا ينبغى أن تنتهك، كما بشّر بتغير الحال وأن يُحدث الله أمرا ينتهى به النزاع والشقاق ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق: الآية ١).

ولا يمكن أن يكون الأمر بمكث المرأة فى بيتها إلا لأجل الإصلاح وليكون أقرب إلى مراجعتها.

المرأة المطلقة فى بيت الزوجية، فهى تقضى وقتها مع زوجها تخلو به ويخلو بها، تظهر أمامه، فهى فترة اختبار : هل هما حقا يستطيع كل واحد الاستغناء عن الآخر أم لا؟ اختبار بشيء من التباعد، فهى مطلقة وهو قد طلقها، لكنه أمامها، وهى أمامه، نعم يوجد نزاع ونشوز، ولكن ما زالا جميعا معا فى بيت واحد، لم يجامعها منذ أسبوع أو شهر، وما زالت فى عدتها، فهل يا ترى سوف يشتهيها ويرغب فيها حين يراها أمامه من وقت لآخر فيرغب فيها وفى الاستمتاع بها فيدعوه ذلك إلى ردها؟

وهل يا ترى سترغب هى فيه خلال هذه المدة، وتبدأ فى التزين له حتى ترغّبه فيها كما رغِبت فيه؟

إذن الآية ـ كما أرى ـ تدعو إلى تذكير المرأة بالمباعلة والملاعبة وما كان بينهما من علاقة حميمة، وكأنها تقول لها : هو بعلك فتزينى له، وإن كان الرد بيده هو فأنت أيضا عليك دور فى فى الرد بالتزين له.

ومما يرشح لهذا المعنى أن الآية كلها فى كل لفظة فيها تدعو إلى الحث على الرد وإعادة العلاقة بين الزوجين كما سبق فى الوجوه السابقة.

بقـى لنا الآية الثانية، وهى قوله تعـالى ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ ﴾.

قـد يبدو أن معنى السـيد فى البعل هنا واضح، وأنـه لا يمكن حمل الآية إلا على هذا؛ لأن الآية تتحدث عن حالة نشوز أو إعراض من الرجل، وأن المرأة تريد أن تصالحه لكى تعالج هذا النشوز، فقد تتنازل عن حقها فى المبيت مثلا لضرَّتها من أجل أن تبقى عصمة النكاح بينهما، كما فعلت أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضى الله عنها حين صالحت النبى ﷺ على أن تترك ليلتها ـ حين كبرت سنها ـ لأم المؤمنينعائشة رضى الله عنها، وقد ورد أن هذا الموقف هو سبب نزول الآية الكريمة.

عـلى أنـه لا مانع ـ عندى مـن حمل لفظة (بعل) هنا على معنـى المباعلة، بل قد يكون ذلك أقوى من حملها على معنى السـيد؛ لأنه لا وجه لسـيادة الرجل هنا، وهل إعراضه عنها وعدم رغبته فيها يعنى السيادة عليها ؟!

حالة النشـوز والإعـراض قد تصيب الزوجين معا، فلا يرغـب كل منهما فى الآخر، وقد تصيب أحدهما دون الآخر، فهى حالة نفسـية طبيعية، كثيرا ما يكون سـببها راجعا إلى الرغبة والشهوة، لا إلى سوء الأخلاق أو سوء العشرة، فقد تكون المرأة حسنة المعشر طيبة الخلق مع زوجها ورغم ذلك لا يرغب فيها زوجها لكبر سنها، أو لعدم جمالها، أو لأى سبب آخر.

والمرأة بحِسّها تعرف إعراض زوجها عنها بهذا الأمر، أمر الملاعبة والشهوة والرغبة فى الاسـتمتاع بهـا، فإذا ما أحسـت المرأة بعدم رغبة زوجها فيهـا فعليها أن تتحرك نحو معالجـة الأمـر، ولذا عـبر القرآن بلفـظ الخوف «وإن امـرأة خافت من بعلها نشـوزا أو إعراضا» لينبهها على سرعة التحرك نحو المصالحة وعلاج الأمر قبل أن يتفاقم.

المصالحة والعلاج قد يأخذ صورا مختلفة، منها ما ذكر فى سـبب نزول الآية، وهى أن تتنازل المرأة عن حقها فى المبيت فى مقابل أن تبقى زوجة، وقد يكون هذا علاجا مُرضِيا لبعض النسـاء بسـبب عدم رغبتهـا هى الأخـرى فى زوجها لكبر سـنها، وقد لا يكون مناسبا فيبحث الطرفان عن حل آخر.

الشاهد من الآية هو التعبير بلفظ ﴿بَعۡلِهَا﴾ فى هذا الموضع ومناسبته للموقف، وكأن الآية بذلك تشير إلى أن معرفة النشوز والإعراض تعرفه المرأة من التبعّل والاستمتاع، فهى تتزين له وهو مُعرض عنها لا يشتهيها، تحاول التبعل له ولكنه لا يتجاوب معها ولا يتفاعل مع تزينها له، يمكث الفترة الطويلة لا يأتيها متعللا بتعبه وكثرة انشغالاته، وهنا على المرأة أن تستشعر الخطر وتبدأ فى العلاج.

فحين تقول الآية ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ كأنها تلفت نظر المرأة إلى أن البعل إذا لم يكن بعلا بالمعنى الحقيقى (فى المباعلة والملاعبة) فهناك مشكلة ينبغى التحرك لحلها.

بهذا ظهر لنا أن المواضع التى ذُكر فيها البعل فيما يتعلق بهذه الأمة كلها تصلح لحملها على معنى واحد، وهو معنى البعل الراغب فى زوجته المباعل لها والملاعب.

نعم قد يكون هذا البحث فى معنى المباعلة فى (استدعاءات الاستعمالات) فيه نوع تخصص، ويحتاج إلى معرفة بالتفسير واللغة والأحكام، ولكن كما نبهنا فى المقدمة أن هذا النموذج فى التحليل يصلح أن يستعمله المتخصصون وأن يجدوا فيه بُغْيتهم، وقد يصعب استنتاج بعض المعانى على عموم المسلمين من غير المتخصصين، ولكن هذا لا ينفى أنهم يجدون خيرا كثيرا باستعمال النموذج فى أغلب المواضع، وكل بحسبه، فالنموذج ما هو إلا آلية للتحليل والاستنباط، وتكون منتجاته ومخرجاته على حسب علم كل واحد وثقافته وما يفتحالله تعالى عليه.

ولا ينبغى أن ينزعج بعض إخوانى بمثل هذه الأمثلة التى قد يكون فيها نوع صعوبة فى التحليل والاستنباط، فإنما أردت أن تكون الأمثلة متنوعة، بعضها يصلح لأن يستنبطها المشتغلون بعلوم الشريعة، وبعضها يصلح لكل المتعلمين، ليكون النموذج أعم وأشمل.

استعمال القرآن للفظ « وامرأته » :

ومما يشبه البحث السابق فى معنى البعل تعبير القرآن بلفظ ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ بدلا من زوجه[٨].

٨- يلاحَظ أن القرآن لا يقول زوجته بل يقول زوجه للتعبير عن الزوجة، فالزوج يطلق على الرجل والمراة.

امـرأة الرجل هى زوجه، والقرآن يكثر من اسـتعمال هذا لفـظ (الزوج) للتعبير عن الرابطة بين الزوجين، قال تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (البقرة : الآية ٣٥).

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ ﴾ (النساء : الآية ١٢).

﴿ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ (التوبة : الآية ٢٤).

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ «(النحل: الآية ٧٢).

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ (الفرقـــان : الآية ٧٤).

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ﴾ (الشعراء : الآية ١٦٦).

﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ (الأحزاب : الآية ٤).

﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ (الأحزاب : الآية ٦).

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (الزخرف : الآية ٧٠).

﴿ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ (الممتحنة : الآية ١١).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾ (التغابن : الآية ١٤) .

إلى غير ذلك من آيات وهى كثيرة، ويمكنك مراجعتها فى (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم).

هذا هو الأصل فى القرآن للتعبير عن هذه الرابطة بين الزوجين، فالرجل زوج المرأة، والمرأة زوج الرجل، فكل منهما زوج للآخر، أى مكمل له، وأصل الزوج فى اللغة هو ما يثنَّى به الفرد، فالواحد فرد، فإذا ما أتاه ما يثنيه سمى زوجا له.

وهـو تعبيـر لطيف للدلالة على هذه العلاقة المزدوجة بين الزوجين، فكل منهما يثنى الآخر، فكأن الواحد منهما لا يسـتطيع الاسـتغناء عن الآخـر، ولا يعيش بمفرده بدون الآخر، علاقة قائمة على التكامل والترابط والتلاحم والتآخى والمودة والرحمة.

لكن جاء القرآن فى مواضع قليلة عبر عن هذه العلاقة بشيء آخر، فلا ينسب الأنثى إلى زوجها بلفظ الزوجية، فلا يقول : زوجه، بل يقول : امرأته، أو امرأة فلان.

جاء لفظ امرأة فى القرآن مضافا إلى الرجل (الزوج) إما بإضافته إلى الاسم الصريح، أو إلى الضمير العائد على الرجل فى مواضع، نذكرها على سبيل الحصر.

١ - امـــرأة العزيـــز :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ (يوسف : الآية ٢١).

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ (يوسف : الآية ٣٠).

﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ (يوسف : الآية ٥١).

٢ - امـــرأة فرعـــون :

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ﴾ (القصص : الآية ٩).

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ (التحريم : الآية ١١) .

٣ - امـــرأة نـــوح :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ ﴾ (التحريم : الآية ١٠) .

٤ - امـــرأة لـــوط :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ (الأعراف : الآية ٨٣).

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ (هود : الآية ٨١).

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ (الحجر : الآية ٦٠) .

﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ (النمل : الآية ٥٧).

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾ (العنكبوت : الآية ٣٢).

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴾(العنكبوت: الآية ٣٣).

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ﴾(التحريم: الآية ١٠).

٥ - امــرأة عمــران :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (آل عمران : الآية ٣٥).

٦ - امــرأة إبراهيــم :

﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾(هود: الآية ٧١).

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (الذاريات : الآية ٢٩).

٧ - امــرأة زكريــا :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾(آل عمران: الآية ٤٠).

﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ (مريم: الآية ٥).

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (مريم : الآية ٨).

٨ - امــرأة أبــى لهــب :

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ (المسد : الآية ٤).

هذه هى المواضع كلها التى وردت فيها لفظ امرأة منسوبة إلى الرجل إما باسم الرجل الظاهر أو بالضمير.

والسؤال الذى تطرحه وحدة الاستدعاءات : لماذا عبر القرآن فى هذه المواضع بالمرأة ولم يعبر بالزوج، رغم قيام العلاقة الزوجية بين المرأة وزوجها فى كل هذه المواضع؟

بالتأمل نلاحظ أن العلاقة الزوجية بين المرأة والرجل فى هذه المواضع فيها مشكلة، إما للنفور بين الزوجين لاختلاف الدين، أو لكبر السن، أو لعدم الحب، أو لعدم الإنجاب.

فامرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون لا شك أن الاختلاف فى الدين جعل هناك حاجزا بينهما، ولذا سمى القرآن فِعلَى امرأة نوح وامراة لوط ـ حين خالف زوجيهما فى الدين ـ خيانة ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾.

وامرأة فرعون لم تكن لتحب هذا الطاغية الكافر، ولذا كان دعاؤها ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (التحريم: الآية ١١).

فقد دعت ببيت فى الجنة عوضا عن بيت الزوجية الذى افتقدته فى الدنيا، وقدمت جوار الله تعالى على البيت فى قولها ﴿عِندَكَ﴾ ليعوضها ذلك عما افتقدته من جوار زوجها فى الدنيا.

وامرأة الخليل إبراهيم وامرأة زكريا وزوجاهما ـ عليهم جميعا السلام ـ كانوا جميعا فى سن كبيرة، لا تسمح بالرغبة الزوجية التى يعبر عنها بالاستمتاع والمباشرة.

وكأن القرآن يشير إلى أهمية الاستمتاع والرغبة بين الزوجين فى تقوية العلاقة بينهما، أو يكون السبب عدم الإنجاب، فقد جاء ذكرهما بلفظ المرأة لعدم وجود الولد فى هذا الوقت، وفى هذا إشارة أيضا إلى أن الحياة الزوجية غير مكتملة بسبب فقدان الولد.

أما امرأة العزيز فواضح عدم حبها له، وانشغالُها بنبى الله يوسف دليل على ذلك، دليل على أن العلاقة بينها وبين زوجها لم تكن حميمة، وأن قلبها لم يكن معلقا بزوجها، وربما كانت طبيعة الرجل أو انشغاله بأمور الملك كانت سببا لأن يترك لها مساحة لتنشغل بغيره، مع ما وهبه الله تعالى ليوسف من جمال فاتن.

وقد ذكروا فى كتب التفسير ما يدل على أن الرجل كان لا يغار عليها، وسواء صح ذلك أم لم يصح من حيث الرواية والنقل فإن القرآن قد أشار إلى ذلك بقوله ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ دون استعمال لفظ الزوج.

بقى ما يتعلق بامرأة عمران وامرأة أبى لهب، والأقرب عندى أن يكون من النوع الذى يرجع سببه إلى كبر السن.

كما أن هناك ملمحا آخر وسببا لتسميتها بالمرأة دون الزوج، وهو أن القرآن يتحدث عنهما بمعزل عن العلاقة الزوجية بينهما وبين زوجيهما، فامرأة عمران فى الموضع الذى وردت فيه من سورة آل عمران إنما تدعو ربها وتَنذر ما فى بطنها محررا لله تعالى، فالآية لا تتحدث عن شيء يتعلق بعلاقتها بزوجها، وكأنها فى ابتهالها لله امرأة منفصلة عن زوجها لا علاقة لها به، ووجه إضافتها لعمران هوالتعريف بها، حتى نعلم عمن تتكلم الآية، فبعد أن ذكر الله تعالى من فضّله واصطفاه على العالمين من الأفراد والبيوت فى قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: الآية ٣٣) بعد أن ذكر ذلك اختار من بين هؤلاء الحديث عن مشهد من بيوت الآل الذين فضّلهم، فقال ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾.

وكذلك امرأة أبى لهب لم يذكرها بلفظ الزوج لنفس الغرض، فهى امرأة مستقلة عن زوجها، تحاسب عن فعلها بمفردها ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ فكان عذابها غير عذاب زوجها الذى ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فلا وجه هنا لذكر العلاقة الزوجية بينهما.

على أى حال فإن القرآن الكريم حين نتتبع استعماله للألفاظ والآيات فى مواضع مختلفة، ونطرح أسئلة تتعلق بمغايرته فى الاستعمال (لماذا استعمل هنا هذه اللفظة وهناك لفظة أخرى؟) ـ فإننا نجد إجابات قد نختلف فيها، وقد يقرب بعضها أو يبعد عن الصواب، ولكنها على أى وضع تعطى فكرا وعلما وملامح عظيمة.

ألفـاظ القـرآن ـ لا شـك ـ فى منتهى الدقة، ومغايرته فى الاسـتعمال يعنى فقها كثيرا، فاسـتعمال الـزوج فى موضـع والبعل فى موضع آخـر لا ينبغى أن يمر علينـا دون تأمل، وتسمية المرأة بهذا الاسم فى موضع وتسميتها زوجا فى موضع آخر ينبغى أن نقف أمامه متدبرين، فقط لنتأمل وسوف يفتح الله تعالى.

هـذا وسـوف يأتـى مزيد حديـث عـن مغايـرات القـرآن فى الاسـتعمال والتعبير فى وحـدة المغايـرات من هـذا النمـوذج، وإنما ذكرنـا هنا المغايـرة المبنية على اسـتدعاءات الاستعمالات.

استعمـال القـرآن للربـط علـى القلـب :

هذا مثال لاستدعاءات استعمال القرآن للجملة.

كنت أتأمل سـورة الكهف فوقفت أمام قوله تعالى فى شـأن فتية الكهف ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ .

واستدعيت استعمال القرآن لقوله ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾، فوجدت أن هذا التعبير قد ذكر فى موضعين آخرين :

أحدهما : فى سـورة الأنفال فى سـياق الحديث عن غزوة بدر ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾.

والآخر فى سورة القصص فى سياق الحديث عن أم موسى ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ولما تدبرت هذه المواضع قلت الآتى :

مـا أعجب قوله تعالى فى شـأن فتية الكهـف ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾! لقد جاءهم العـون من الله تعالى، والمنحة العظيمة التى تجعلهـم يواجهون أهل الأرض لو اجتمعوا

عليهـم، وهـى منحـة ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ فالمؤمنـون الذى يربـط الله على قلوبهم يَثْبتـون عـلى الحـق، وإن أُزهقـت أرواحهـم، وأريقـت دماؤهـم، وقُطعـت أوصالهم، وكُسرت عظامهم، وحُرقت أجسادهم.

والربـط على قلب العبد معناه أن يمنحه الله قوة وعزيمة وثباتا يسـتطيع به أن يواجه الباطل وأهله، وألا يتزحزح عن الحق الذى يعيش من أجله ويدافع عنه.

وتأمـل إيحـاءات المعانـى فى «الربط» فأنت تربـط الدابة حتى لا تنفلـت، وتربط بين الأشـياء لتجمعهـا حتـى لا تتفرق، وتربط متاعك حتى لا يسـقط، وهـذه المعانى كلها يحتاجهـا قلـب المؤمن، فالله يربط على قلبـه حتى لا ينفلت ويبتعد عـن الحق، وحتى لا يتفرق أمره ويتشتت بين الحق والباطل، وحتى لا يسقط فى الفتنة، ولما كان القلب متقلبا بطبيعتـه، ويتلون حسـب الأحوال تجىء المنحة من الله للمؤمن فيربـط على قلبه، ويثبته على شىء واحد رغم تقلب الأحوال، فيكون القلب مربوطا على حال واحدة.

وانظـر إلى أهـل الكهف لمّا ربط الله على قلوبهم قاموا فى وجه طاغية عصرهم ليعلنوا توحيدهم والحق الذى يتمسـكون بـه دون خوف ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾.

والمواضـع التـى ورد فيهـا الربـط على القلـب يجمعها الـصراع بين الحـق والباطل، ومواجهة القلة المسـتضعفة المؤمنة للطغاة الظالمين، وأنها فى مواقف يحتاج فيها المؤمنون لتأييـد الله تعالى لهم؛ فأهل الكهف قلة مسـتضعفة فى مواجهة طاغـية عصرهم بما أوتى مـن جـنـود وقوة، وأم موسـى وحدها فى مقابلـة فرعون وجنوده ومـا يمكن أن يحدث لابنها من هلاك على أيديهم، وفى غزوة بدر كانت الفئة القليلة من النبى ﷺ والصحابة معـه فى مقابلة جيـش يمثل ثلاثة أضعافهم، فكلها مواقف تحتاج إلى الربط على القلوب والتثبيت من الله تعالى.

يعجـب الظالمـون من ثبـات أهل الحق رغـم تعذيبهم، والسـبب هو ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ويتهمونهم بأنهم مرضى نفسـيون، ولا يعلمون أن السبب هو ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ ويحتـارون فى أمر تمسـكهم بما هم عليه وعـد مرضوخهم لهم، ولا يـــدرون

أن السبب هو ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ وأنا ألتمس لهؤلاء الظالمين العذر فى عدم فهمهم؛ لأنهم لم يذوقوا طعم ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ نعم ألتمس لهم العذر لأنهم حمقى مغفلون، فُجّار مغيبون، لا يعرفون عن الله تعالى معشار ما عرفه الذين ربط الله على قلوبهم، ولو أنهم سألوا أنفسهم : لماذا يَثْبت هؤلاء رغم تنكيلنا بهم وتعذيبنا لهم - لعلموا حقيقة الأمر ! ولكن ماذا نفعل مع قوم قلوبهم غُلْف، وعقولهم قُفْل؟ نعذرهم من هذا الباب ونحن نلعنهم لأنهم يفعلون بالذين ربط الله على قلوبهم ما لا يجوز أن يُفعل بهرَّة، وقد دخلت امرأة النار فى هرة عذبتها بالحبس، فماذا عمن يحبس البشر ظلما وعدوانا؟!

اللهم اربط على قلوبنا، واجعلنا من أهل قولك ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾.

استعمال القرآن لآية ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ :

هذا المثال تطبيق على استدعاءات استعمال القرآن للآية.

وردت هذه الآية مرتين، الأولى فى الأعراف والثانية فى فصلت، ولننظر إلى سياق الآيتين:

فى الأعراف قال الله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وفى فصلت : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

وبالتدبر للآيتين وسياق استعمالهما فى الموضعين نلاحظ أن السياق واحد، ففى الأولى وردت بعد الأمر بالعفو والإعراض عن الجاهلين حين يتعرضون للمرء بسوء أو أذى قولى أو فعلى.

وفى الثانية نفس الأمر؛ حيث وردت بعد الأمر بالدفع بالتى هى أحسن لمن يعتدى عليك، ومقابلة سيئته بالحسنة.

والسؤال: لماذا تُذكر الآية ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾ فى سياق العفو والدفع بالحسنى فى كلا الموضعين؟

لا شك أن لكل منا كرامته وعزة نفسه، وإذا دفع المسلم بالتى هى أحسن وقابل السيئة بالحسنة وعفا عمن أساء إليه فى لحظة إيمانية عالية يريد أن يمتثل فيها لتعاليم القرآن الكريم ـ فهذا لا يعنى أن نفسه لن تؤلمه لسكوته على الإهانة وتحمله الأذى، فالشيطان يأتى للعبد فى هذا الموقف ليذكِّره بعزة نفسه وكرامته، ويقول له: كيف تسمح لهذا السفيه أن يعتدى عليك؟ لماذا لم تردّ عليه؟ كيف سمحتَ لنفسك أن يهينك أحد أمام الناس؟ هؤلاء من السفهاء ولا يستحقون أن تعفو عنهم!

وهكذا يصاب العبد فى مثل هذه الحال بنزغ الشيطان ووسوسته، ولهذا جاءت الآية لتعالج المسألة بتنبيه المؤمن أن الشيطان يأتيه فى مثل هذه الحال بعد أن عفا عمن أساء إليه، وعليه أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

لقد جاء القرآن ليعالج واقعا؛ فيعرض صورة حقيقية، ويقدم العلاج والإرشاد الربانى والواقعى أيضا فى تطبيقه، والمفيد فى نتائجه.

كل هذا بتدبر استعمالات القرآن للألفاظ التى قد تكون جملة أو الآية كاملة، علينا أن نفكر بشكل منظومى حين نقرأ الآية، فلا نحصر ذهننا على الموضع الذى نقرؤه فقط، بل عين على الموضع، وعيننا الأخرى على المواضع الأخرى لاستكمال الصورة، واستخراج الكنوز القرآنية فى الاستعمالات.

استعمال القرآن لقوله ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾:

ورد هذا التعبير فى موضعين من القرآن:

الأول: فى سورة النساء حيث قال الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن

كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.

الثانى : فى قوله تعالى فى سورة الحديد ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

عجيب هذا الأمر! فى الموضعين ترد هذه الجملة ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ ﴾ بعد ذكر المختال الفخور الذى لا يحبه الله تعالى.

لم أكن ألحظ هذا الأمر من قبل رغم أنى قرأت الآية فى الموضعين مئات المرات، فلما تعمدت أن أطبق النموذج وأن أستدعى استعمال القرآن لهذه العبارة وجدت بأدنى ملاحظة الاتفاق فى الموضعين على ذكر العبارة بعد المختال الفخور.

جلست هذه الليلة التى استدعيت استعمال القرآن لهذا التعبير واحترت فى البداية لدرجة أنى تناقشت مع زوجتى وسألتها هذا السؤال : هل هناك علاقة بين البخل من جهة والاختيال والفخر من جهة أخرى؟ هل من طبيعة الإنسان البخيل أنه مختال فخور مغرور متعال؟

وبدأ الحوار بيننا نتدبر ونتأمل فى واقع الناس، عَيْن على الآية وعين على الواقع نحاول أن نجد الاتفاق بين صفحة القرآن وصفحة الواقع.

وبالتدبر والتأمل فى الواقع مع الرجوع إلى سياق الآيتين بتمعن أكثر وجدنا الآتى:

نعم البخيل يبخل بكل ماعنده من مال وغيره، فليس البخل محصورا على المال، بدليل الآية النساء ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ ﴾ وواضح من قوله ﴿ وَيَكْتُمُونَ ﴾ أنه ينصرف إلى كتمان العلم والحق.

وكل من يكتم علما أو يريده لنفسه فقط دون غيره يصيبه الاختيال والفخر بهذا العلم، وكذلك أصحاب الأموال الذين يبخلون بها يصيبهم الاختيال والفخر بسببها، فمعلوم أن الغِنى قرين التبختر والاختيال والتفاخر بهذا المال.

وكأن الآية فى الموضعين تشير إلى علاج هذا الداء ـ الاختيال والفخر ـ بالإنفاق من المال والعلم والوقت والجهد، وبتمنِّى الخير للآخرين، فمن تمنى وسعى أن يكون غيره غنيا أو عالما مثله عالج هذا الداء وتخلص منه، وانظر إلى قارون الذى جمع بين المال والعلم الذى حصَّل به هذا المال، انظر ماذا قال؟

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ (القصص : الآية ٧٨).

هكذا قالها وما يدرى عاقبتها الوخيمة! هكذا قالها ولم يعلم أن العلم والمال الذى حصَّله بهذا العلم هو من عند الله ويجب عليه بذله!

هكذا قال وبخل بما آتاه الله فأصابه الاختيال والفخر والتباهى بخروجه على قومه فى زينته مختالا فخورا.

فكانت النتيجة ما حكاه القرآن من سوء عاقبته بالخسف به وبداره.

نوع آخر من استدعاء الاستعمالات :

هو ما يمكن تسميته باستدعاء المعانى القرآنية غير ملتزمين بنص الألفاظ والجمل كما سبق.

وهذا النوع الخاص يحتاج إلى إمكانيات أكثر فى الحفظ وكثرة التلاوة، لأن (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن) لن يفيدك فى هذا، فأنت هنا تستدعى المعنى الذى تفهمه من الآية وتتتبعه فى القرآن كله، وإن ورد بألفاظ وعبارات وسياقات مختلفة تماما عن ألفاظ الموضع الذى تتدبره.

إن تتبع المعانى القرآنية أينما وردت وجمعها كلها يجعلنا نكوّن صورة منظومية عما يريده الله تعالى منا بخصوص هذا المعنى.

وقد وقفت على تجربة لفضيلة الشيخ محمد الغزالى رحمه الله بخصوص هذا، حيث تتبع معنى واحدا فى القرآن كله، ونتركه يحكى لنا هذه التجربة.

قال رحمه الله : وقد عنّ لى أن أتتبع معنى واحدا فى كتاب الله، وأرصد مواقعه فى شتى سور القرآن فعدت بحصيلة حسنة..

نحن نستشعر بأن الخاطئين يُحسّون الندم يوم القيامة على ما اقترفوا من آثام، ويضمون إلى هذا الندم أمنية يستحيل تحقيقها، هى أن يعودوا مرة أخرى إلى الحياة الأولى كى يحسنوا بدل ما أساءوا.

أى أنهم يطلبون ملحقا للامتحان الذى سقطوا فيه، وهيهات!

كم مرة تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم؟ فلأنظر فى المصحف الشريف حسب ترتيب السور..

١- فى سورة البقرة يغتاظ الأتباع من تنكُّر السادة لهم يوم الحساب فيقولون ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾.

٢- فى سورة الأنعام يتمنى المشركون لو عادوا ليصدّقوا بما كانوا به فى الدنيا مكذبين ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٣- فى سورة الأعراف يبين الله أن القرآن الكريم حوى من النذُر ما يبعث على الارعواء، ويسوق إلى الهدى، ولكن الناس صدوا عنه، وعندما يصدمهم الوعيد الذى استخفوا به يطلبون النجاة ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

٤- ويتضح ما يطلبون فى سورة إبراهيم عندما يصيح الظلمة : ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

٥- ويجىء هذا المعنى فى خلاصة وجيزة فى صدر سورة الحجر ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أما سورة المؤمنون ففيها تفصيل يظهر فى موضعين :

٦- ضراعة الكافر أن يرجع إلى الحياة ليصلح ما أفسد ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾.

٧- والموضع الآخر فى دعاء أهل النار عندما يحيط بهم العذاب ويصرخون من شدة الألم ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

٨- أما فى سورة الفرقان فإن الذكرى تبدو فى مسالك متناثرة تخامر الكافر عن الأيام التى خلت، فهو يقول آسفا ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ لقد فات الأوان، ولات ساعة مندم.

٩- وفى سورة الشعراء ينظر المشركون إلى آلهتهم وسادتهم فى جهنم يتعذبون معهم، لقد استوى المجرمون فى سوء العقبى، عندئذ يقول الأذناب المخدوعون ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وهيهات، لا عودة لاستئناف حياة أرشد..

١٠- وفى سورة السجدة يصرّح المجرمون بأمنيتهم، ويسألون الله أن يمنحهم فرصة أخرى ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ونلحظ أن السكوت هو الجواب، كأنهم أحقر من أن ينتظروا ردا، وهذا إيلام أوجع.

١١- أما فى فاطر فقد سمعوا إجابة توجب الحسرة وتضاعف العذاب ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

١٢- ونلحظ فى سورة الزمر أن الله يحذر عباده من التعرض لهذه المواقف اليائسة؛ ولذلك يدعوهم إلى التوبة هنا قبل أن يصْحوا هناك على غد قاتم يستحيل معه استدراك ما فات ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

لماذا شغلت نفسى بهذا الإحصاء؟ لأن المسلمين وقَر فى نفوسهم نوع من الجبرية التى أفقدتْهم الرشد، فحسبوا أنهم مُسيَّرون لا مخيرون، منساقون لا قادرون أحرار..

هل يجرؤ أحدهم يوم القيامة على اللجوء إلى هذا الكذب؟

إن أمتنا استنامت فى هذه الحياة لأفكار جعلتْها تحيا فى غيبوبة مُهلكة، ولم تصح لها دنيا ولا دين إلا إذا عقلت كتابها وصححت موقفها منه.

ومن الممكن استخراج قضايا كلية وجزئية من القرآن الكريم على النحو السهل الذى سقناه هنا، ولن يعطيك القرآن بعضه إلا إذا أعطيته كلك»[٩].

وهذا التتبع نوع من التفسير الموضوعى للقرآن، حيث نتتبع معنى معينا فى القرآن كله، وننظر كيف تحدث عنه القرآن، لنبنى تصورا كاملا عن الموضوع كما عرضه القرآن الكريم.

وإذا كان التفسير الموضوعى يعرض لقضايا كلية، ويعالج مسائل لها مفردات كثيرة، فإن ما نقصده بتتبع المعانى أعم من هذا الذى يهتم به التفسير الموضوعى، فهو يعرض أيضا للمعانى الجزئية ويتتبعها فى القرآن الكريم ليستخرج بذلك الدروس والفوائد، أما التفسير الموضوعى فهو لا يزال يعرض للقضايا الكبرى، كقضية الفقر وكيف عالجها القرآن الكريم، وقضية الحوار، والمرأة فى القرآن، إلى غير ذلك من الموضوعات ذات الحجم الكبير التى يمكن بتتبعها فى القرآن أن نصنع منها مجلدا كبيرا.

ولكن ما نعنيه بالتتبع فى استعمالات المعانى لا ينحصر على هذا فقط، بل يشمل المعانى الجزئية أيضا، كالمعنى الذى تتبعه الشيخ الغزالى رحمه الله تعالى، وبنى عليه منهجه فى محاربة أنصار الجبرية.

٩- تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل (١٢٩-١٣٢) للشيخ محمد الغزالى دار الشروق - الطبعة الرابعة ١٩٩٦م.

كنت أصنع هذا فى (دورة معايشة القرآن) نأخذ بعض المعانى ونقوم بتتبعها فى القرآن الكريم حتى خرجنا بهذه النتيجة، وهى أن موضوعات التفسير الموضوعى بهذا المعنى الجزئى غير متناهية، فمن الممكن أن تستنبط موضوعا غير تقليدى وتقوم بتتبعه فى القرآن كله.

من ذلك ـ مثلا ـ موضوع الحجارة فى القرآن الكريم وما يتكون منها كالجبال، وكيف كانت جندا من جنود الله تعالى؟ لقد أهلك الله بها قوم لوط، وأهلك بها أصحاب الفيل.

تأمل الآيات التى ورد فيها الحجارة والجبال لتتعرف على عظمة هذه الجمادات وأنها منساقة لربها خاضعة له، تخشع كما نخشع وأكثر ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: الآية ٧٤) وقال تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: الآية ٢١) وهذا كله يحث المسلم على أن يغار من هذه الجمادات ويستحيى من ربه إذا كان مُصِرًا على معصيته.

ومن ذلك أيضا تعبير القرآن عن عمل الإنسان باستخدام الأفعال الآتية: عمل ـ كسب ـ اكتسب ـ أحضر ـ قدمت وأخرت ـ جرح ـ اجترح، كما ورد فى هذه الآيات:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ (البروج: الآية ١١) والتعبير بالفعل (عمل) ورد فى عشرات الآيات كما هو معلوم.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: الآية ٢٨٦).

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ (التكوير: الآية ١٤).

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (الانفطار: الآية ٥).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ (الأنعام: الآية ٦٠).

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الجاثية: الآية ٢١) .

ولا شك أن هناك فروقا بين هذه المفردات فى بعض المعانى وإن كانت تجتمع فى أصل معنى العمل، والجمع بينها يجعلنا أكثر فهما ووعيا بطبيعة عمل الإنسان.

الأمر يحتاج إلى تدبر وتمعن.

وخلاصة القول أن تتبع ألفاظ القرآن الكريم وعباراته فى القرآن كله يعطيك معانى جليلة وجديرة بالوقوف أمامها، كما أن تتبع المعنيولو كانجزئيا يعطينا مفهوما صحيحا وتصورا كاملا عن هذا المعنى.

***

الفصـــل الثانـى

الوحدة الثانية من النموذج
(العَلاقــات)
بين الجمل ـ بين الآيات

القـرآن الكريم ليس ككتب البشر فى طريقة عرضـه للموضوعات، بل له أســلوبه الخـاص ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلـت: الآيـة ٤٢) يعــرض لـك جُمَـلا تحتـوى علـى بعـض الموضـوعات فى الآيـة الواحدة، وتجد السـورة الواحدة بها كثـير من ألوان الموضوعـات والقضايـا، ويبـدو لك مـن الوهلة الأولى أنـه ليس هناك علاقـة بين هذه الموضوعات أو بين هذه الجمل.

ولكـن بالتدبر تجـد علما كثيرا وفقها عظيـما بالبحث فى العلاقات بـين الجمل، وبين الآيات، بل وبين السور، الأمر فقط يحتاج إلى تدبر وإمعان نظر.

بالتدبـر تجد الآيات متلاحمة لا تَعارضَ بينها ولا تنافر، وتجد السـورة تعرض لك فى الحقيقة موضوعا واحدا من جوانب شتى، وصفحة واحدة ذات وجهين، وطَبَقا واحدا فيـه أصناف شـتى مما لذ وطاب من غذاء العقــل والـــروح، إنك تحتاج إلى تدبر لفهم كل هذا.

أسئلة تطرحها وحدة العلاقات فى هذا النموذج (التحليل المنظومى والنموذج الحضارى) من مثل :

ما علاقة هذه الجملة بما قبلها؟

لماذا جاءت هذه الآية بعد تلك؟

ما الرابطة بين هذا الموضوع وذاك الموضوع؟

لماذا ربط الله تعالى بين هذين الأمرين فى الآية واحدة أو سورة واحدة؟

ونحن كنا نقرأ القرآن دون أن نطرح أسئلة على أنفسنا للبحث فى العلاقات، وأقصانا هو أن نقرأ كتب التفسير لمعرفة المعانى والأحكام فى الآية، وتمدنا كتب التفسير الكثيرة بـكل مـا يمكن أن تحتمله الآية من معـان وأحكام، ولكنها ـ فى أغلبهـا ـ تقف عند هذا الحـد دون بحـث فى قضيـة العلاقات، وإذا ذكـرت بعض العلاقات فإنهـا تذكرها على استحياء أو إشارات سطحية بما لايمكن أن يكون منهجا عند أغلب المفسرين.

باسـتثناء بعـض الكتـب التـى صُنفـت خصيصـا فى إيجـاد المناسـبات بـين الآيات والسوركتاب (نظم الدرر فى تناسب الآيات و السور) للإمام البقاعى.

وكان العلماء يسمون هذه العلاقات بين الآيات والسور بعلم المناسبات، ولهم فى ذلك أقـوال تمتدح الاشـتغال به، وتنتقد قلة الإقبال عليه من المفسرين، وقد تكلم السـيوطى فى كتابـه «الإتقان فى علوم القرآن» عن هـذا النوع من علوم القرآن تحت عنوان: (النوع الثانى والستون: فى مناسبة الآيات والسور) وفيه يقول :

وعلم المناسـبة علم شريف قلَّ اعتناء المفسـرين به لدقته، وممن أكثر فيه الإمام فخـر الدين، وقال فى تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودَعَة فى الترتيبات والروابط.

ثم نقل عن ابن العربى قوله : ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متســقة المعانى منتظمة المبانى علم عظيم لم يتعرضِ له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حَمَلة ورأينا الخَلْق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه.

وقـال غـيره : أول من أظهر علـم المناسـبة الشـيخ أبو بكر النيسـابورى، وكان غزير العلـم فى الشريعـة والأدب، وكان يقـول إذا قـرئ عليه : لم جُعلت هـذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة فى جعل هذه السـورة إلى جنب هذه السـورة، وكان يزرى على علماء بغداد ـ أى يَعيبهم ـ لعدم علمهم بالمناسبة.

وقال الشيخ ولىّ الدين المَلّوى : قد وهم من قال لا يُطلب للآى الكريمة مناسـبة لأنها على حسـب الوقائع المفرقة، وفصلُ الكلام أنها على حسـب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمـة ترتيبـا وتأصيلا؛ فالمصحف على وفق مـا فى اللوح المحفوظ مرتبةٌ سـورُه كلها

بالتوقيف كما أُنزل جملة إلى بيت العزة، ومن المعجز البيّن أسلوبُه ونظمه الباهر، والذى ينبغى فى كل الآية أن يُبحث أول كل شيء عن كونها مكمِّلة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها، ففى ذلك علم جمّ، وهكذا فى السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له.

وقال الإمام الرازى فى سورة البقرة : ومن تأمل فى لطائف نظم هذه السورة وفى بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أنى رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار[١٠].

وأتفق مع هذه الأقوال، ويمكن تلخيص كل ما سبق فى أمرين :

الأول : أن علم العلاقات (المناسبات) فيه خير كبير وأسرار عظيمة.

الثانى : أن المفسرين لم يهتموا به، وهو مجال خصب للتدبر والبحث والإضافة.

والاشتغال بالعلاقات أمر ممكن ولو من غير العلماء المختصين، وربما فُهم من الأقوال التى نقلناها أن هذاالعلم للعلماء المحنكين فقط، وهذا غير صحيح.

فإيجاد العلاقات بين الجمل والآيات يحتاج إلى تدبر وفهم لاستخراج العجائب، وورشات العمل أثبتت لنا ذلك، فحين نبحث فى العلاقات ونحن نتدبر نجد كثيرا من إخواننا يتفنن فى إيجاد العلاقات بفهم ووعى وهو من غير المتخصصين فضلا عن أن يكون من العلماء.

نعم العلماء لهم النصيب الأكبر فى الفهم والاستنباط بما آتاهم الله من علم واسع وفهم ثاقب، ولكن هذا لا ينفى أن يكون لغيرهم نصيب ليس بالقليل فى هذا الباب وغيره من أبواب التدبر، بل ربما أدرك غير العالم أحيانا ما لا يدركه العالم، وكلٌّ من فضله تعالى.

١٠- راجع هذه الأقوال فى «الإتقان فى علوم القرآن» للسيوطى (٣/ ٣٦٩-٣٧٠) الناشر الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

أمثلـة تطبيقيـة علـى العلاقـات :

١ - قولـه تعالـى « ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ الآيـة :

اقـرأ قولـه تعـالى : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور: الآية ٣٣).

اشـتملت هذه الآيـة الكريمة فى ظاهرها على قضايا مختلفـة، فهى تتحدث عن ثلاثة موضوعات :

الأول : الأمـر بالاسـتعفاف لمن لم يجـد الزواج حتى يغنيه الله مـن فضله ويجد تكلفة الزواج ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

الثانـى : موضـوع مكاتبة العبيـد على أن يسْـعَوا ويعملوا ويدفعوا لأسـيادهم ثمن حريتهـم فيما يعـرف فِقْهيا بحكم المكاتبـة ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

الثالـث : نهى الأسـياد عن إكـراه إمائهم على الزنا ابتغاء المال كـما كان يفعل عبد الله بن أبىّ بن سـلول رأس النفاق ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

تبدو هذه الموضوعات الثلاث أنها لا علاقة بينها، وأنها تقرر أحكاما متغايرة، ولكنها فى الحقيقة عند التدبر والتمعن إنما تتحدث عن موضوع واحد فقط.

إنـه موضوع العفة والطهارة مـن رجس الزنا والفواحش، إنـه موضوع النفير العام الذى دعا الله تعالى إليه فى الآية السابقة على هذه الآية ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (النـور: الآية ٣٢).

دعا الله تعالى فى هذه الآية إلى أن ينطلق الجميع شعوبًا وحكومات، أفرادًا وجماعات إلى الزواج والتزويج بهذا الأمر العجيب فى تزويج كل من لا زوج له ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾ ثم جعل أفراد المجتمع لحمة واحدة وأمة واحدة حين قال ﴿مِنكُمْ﴾.

ثـم جـاءت الآية التاليـة لتأمر بالعفة والطهـارة من رجس الزنا حتـى يأتى الله تعالى بالغنى واليسـر فـى القدرة على النكاح ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

هـذا الأمر بالعفة وهذا النفير العام نحو الـزواج والتزويج للأحرار والعبيد والإماء أمامه مجموعة من العقبات لا بد من تقديم حلول لها.

العقبة الأولى هى الفقر، وقد عالجت الآية هذه العقبة بأن وعدت بأن كل من يبحث عـن العفة بالنكاح سـوف يغنيـه الله تعالى من فضلـه، عليكم فقط أن تزوِّجـوا الفقراء وأن تَرضَـوا بهم أزواجـا إذا ما خطبوا بناتكم، والله تعالى يعدكـم بأن يغنيهم من فضله وأن يوسـع عليهـم فى أرزاقهـم لتعيـش بناتكم تحت كنفهـم مرزوقين بـإذن الله تعالى، ولـذا ختمت الآية بهذين الاسـمين الجليلين من أسـماء الله تعـالى ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والعلاقـة بـين الختام وموضـوع الآية واضحة فى بيان أنه الواسـع تعـالى فى رزقه وعليم بمسـتقبل هؤلاء الفقراء وأنه سـوف يوسـع عليهـم، عليكم فقـط أن تقبلوهم أزواجا لبناتكم حِسبة لله تعالى.

العقبة التالية هى عقبة العبودية للبشر التى تَحُول بين العبد والزواج، وقد دعت الآية الأولى فى هذا النفير العام إلى زواج الجميع بما فيهم العبيد، بل أعطت العبيد أهمية خاصة حـين فصلتهـم ذكورا وإناثـا ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ ولم تفعل هـذا مع الأحرار، بل اكتفت بالعموم فى قوله ﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾ الذى يشمل الجميع.

نعـم العبودية عقبة فى تنفيـذ هذا النفير ؛ حيث لا يرضى النـاس لبناتهم أن يتزوجوا عبيـدا خدما لأسـيادهم، لا يملكون حرية التصرف، كـما أن الأضرار الناجمة على زواج العبد وخيمة، فهو مشـغول عن زوجته بخدمة سـيده، وهو فى النهاية عبد لسيده وليس كفئا للحرة.

إنها ـ بحق ـ عقبة كبيرة تعطل الانطلاق نحو هذا النفير العام الذى دعا الله تعالى إليه، ولذا كان من المناسب فى هذا السياق أن يقدم القرآن حلا ناجعا فى نيل العبيد لحريتهم ليتخطوا هذه العقبة الكئود نحو الزواج والعفة فى المجتمع.

فأمر الله تعالى بالمكاتبة، وهى أن يسمح السيد لعبده أن يعمل من أجل الحصول على المال ليدفع لسيده ثمن حريته، فإذا ما نالها ذُللت الصعوبات وأصبح الطريق ممهَّدا نحو الزواج.

بل يسر الله فى المكاتبة وأمر بمساعدة العبيد فيها فى تأدية الثمن فقال ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ بل يجوز أن يأخذ العبد من مال الزكاة ليدفع ثمن حريته أو يسدد ما بقى عليه من ثمنها، كما قال تعالى فى مصارف الزكاة ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ (التوبة: الآية ٦٠).

وإذا كان السياق كله فى الآيتين سياق عفة ودعوة إلى تحصيل سبيلها بالزواج والتزويج ـ فإنه من المناسب أن يعالج السياق هذا السلوك المشين من بعض الأسياد الذين يجبرون إماءهم على الزنا تكسبا للمال الحرام، فمثل هذه الظاهرة المعيبة تقدح فى عفة المجتمع الذى تشكل إماء المسلمين جزءا منه.

وكأن الآية تدعو إلى العفة «وليستعفف» ثم تخص عفة العبيد بعناية خاصة لِما فى زواجهم من عقبات أكثر، فدعت إلى تحريرهم بالمكاتبة، ثم حثتهم على هذه المكاتبة حتى يُعِفّوا هؤلاء الإماء بالزواج بدلا من إجبارهم على الزنا، لكى يخلّصوهن من هؤلاء الأسياد الطغاة الذين ينشرون الفواحش فى المجتمع.

فهى إذن استنهاض من الله تعالى واستنفار لنا وتحفيز للنفوس من الرجال أن يتكاتفوا لتخليص الإماء من شرَك الوقوع فى الزنا بتحريرهن، أو بتحرير العبيد ليتزوجوا هؤلاء.

ظهر بالتدبر أن الآيتين وليست هذه الآية فقط إنما تعرض قضية واحدة، ومشهدا مترابطا، وقضية كلية، هى قضية العفة فى المجتمع بنشر الزواج والتزويج، ولكن لهذه القضية أجزاء وفصول، وقد بدت أجزاؤها من أول وهلة وكأنها موضوعات مختلفة، ولكنها فى الحقيقة عند التدبر موضوع واحد وقضية متماسكة.

٢- قوله تعالى : ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ وعلاقته بما قبله:

أقسم الله فى سورة الشمس بأحد عشر قسما على حقيقة كبرى ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ (الشمس: الآيات ١-٨).

ثم يأتى المقسم عليه الذى يمثل الحقيقة الكبرى فى الوجود ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

هذا ما أقسم الله عليه ليتبين للإنسان قيمة التقوى وتزكية النفس، وأن وجوده فى هذه الدنيا من أجل هذهالحقيقة العظيمة، وأن موته ومآله وبعثه ومستقره فى الآخرة سيكون بناء على هذه الحقيقة، فإن قام بواجبها فقد فاز فى الدارين، وإن كانت الأخرى فقد ﴿خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

والسؤال الذى تطرحه وحدة العلاقات فى النموذج : لماذا هذه الانتقالة الواسعة إلى قصة ثمود ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾؟ ما العلاقة بين ذكر ثمود وتكذيبهم وقتلهم للناقة بكل ما سبق؟

لأول وهلة لا يجد القارئ علاقة بين الأمرين ويعتقد أنه مجرد ذكر لقوم ثمود دونما أى تعلُّق بالسياق، أو لله حكمة فى هذا لا يعلمها إلا هو، وعلينا أن نسلم بما جاء من عند ربنا ونقول ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (آل عمران: الآية ٧).

هكذا يحلو للبعض أن يقول!!

وهو كلام عجيب! ولا تعارض بين الإيمان بما جاءنا من عند الله والتسليم به، والتدبر والتأمل الذى أمرنا الله تعالى به، فالقرآن يُقرأ ليُتدبَّر، ويتلى لنبحث عن أسراره ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (ص: الآية ٢٩).

والآن تعالوا نتدبر فى العلاقة بين الآيات.

لقد حشد الله تعالى أكبر قدر من الأقسام (جمع قَسَم) على هذه الحقيقة الكبرى لأهميتها، حقيقة ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ فهى أصل خلق

الإنسـان، وعلى أساسها ينبنى مصيره فى الآخرة، ولا يوجد موضع فى القرآن حُشد هذا الكم من القسم والحلف أكثر من هذا الموضع.

لقد أقسـم الله تعالى بالكون كله من أرض وسـماء، وليل ونهار، وشـمس وقمر، كما أقسـم بـرب كل هذه المخلوقـات ﴿ وَمَا بَنَنٰهَا ـ وَمَا طَحَنٰهَا ـ وَمَا سَوَّنٰهَا ﴾ ليؤكد هذه الحقيقة للإنسان لعله يصدق ويعتبر.

أقسـم الله تعـالى بكل هـذه الآيات الكـبرى ليدلل على صدق الحقيقـة وأهميتها، فلا نعـرف فى الكـون من دلائـل بينة وآيات ظاهـرة أمامنا أعظم من هـذا، فالمحلوف به فى هـذه الآيات هى معجزات بينات على وجود الله تعـالى وقدرته وصدقه فيما يقول، ولذا عـلى الإنسـان أن يصـدق هذه الحقيقـة إن كان يعتبر بهـذه الآيات ويُحسـن التأمل فيها، والاستدلال بها على قدرة الله فى بعثه يوم القيامة وصدقه على ما أقسم عليه.

فلا مزيد بعد الأرض والسـماء والليل والنهار والشـمس والقمر، لا مزيد من آيات نحتاجها حتى نصدِّق ما جاءنا من عند الله فى قسَمه على هذه الحقيقة.

ومـن لا يصـدق بكل هذه الآيات فلا تنفعه أى الآيـة أخرى، حيث إن أى الآية بعد هذه الآيات كأنها لغو وعبث.

وهذا ما حدث مع قوم ثمود، لم يعتبروا بكل هذه الآيات فى الكون، وذهبوا يطلبون الآية أخرى لا تساوى فى حجمها وإعجازها كل هذه الآيات فى الكون، فهل نفعهم أن جاءهم الله بما طلبوه؟!

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنٰهَآ ﴾ ولا يمكـن إلا أن يكذبـوا ؛ لأن مـن لا ينتفـع بـكل هـذه الآيات الكونية فلن تنفعه ألف ناقة!

كذبـوا وقتلوا الناقة فأتاهم العذاب، وهذه عادة الله فى الأمم السـابقة أنهم إذا طلبوا الآيـة وأتاهـم الله بها وكذبوا بهـا ـ أن يحيق بهم عذاب الله تعالى، وهـذا ما حـــدث مع قـــوم ثمود ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾.

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

﴿ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ (هود: الآيات ٦٥-٦٨).

يريد الله تعالى فى سورة الشمس - بما ذكره من تكذيب ثمود بالناقة وعقرهم إياها - أن ينبهنا إلى ألا نفعل فعلهم، وألا نبحث عن آيات أخرى بعد ما خلقه الله تعالى فى الكون وفى أنفسنا من آيات، فلا مزيد على ما خلقه الله فى الاعتبار والاتعاظ، ففيما خلقه تعالى كفاية لنا لمن كان له قلب وعقل يعتبر بهما.

ولكن الإنسان بسبب ما ألفه من هذه الآيات صار لا يعتبر بها، فهو دائما يرى الأرض من تحته والسماء من فوقه وما بها من شمس وقمر، ويتعاقب عليه الليل والنهار، فصار بسبب إلفه لكل هذه الآيات وكثرة مشاهدته لها غير معتبر بها.

وهذا عين ما فعلته ثمود، لم يعتبروا بكل هذا فطلبوا الآية ليجلبوا على أنفسهم العذاب الأليم.

إذن ذكرَ الله الآية الناقة فى قصة ثمود لينبه هذه الأمة على أن تكتفى بما آتاها الله من آيات ولا تطلب المزيد.

والسؤال الآن : لماذا الآية الناقة بالذات؟ لماذا لم يذكر الله تعالى عصا موسى مثلا وهى أيضا الآية من الله لفرعون وقومه؟

والجواب أن عصا موسى عليه السلام لم يطلبها فرعون، بل عرضها موسى عليه ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الشعراء: الآيات ٣٠-٣٢).

أما ثمود فهم الذين طلبوا الناقة وأصرّوا عليها ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الشعراء: الآيات ١٥٣-١٥٥).

وقد كان هذا مسلك كفار مكة، حيث طلبوا من النبى ﷺ آية.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: الآية ٣٧).

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ (يونس: الآية ٢٠).

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (الرعد: الآية ٧).

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ (الرعد: الآية ٢٧).

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (طـــــه: الآيـــــة ١٣٣).

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (العنكبوت: الآية ٥٠).

فلم يأتهم الله بها، رحمة بهم وإبقاء على هذه الأمة، حتى لا ينزل بهم ما نزل بثمود.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ (الإسراء: الآية ٥٩).

أما المسلك السليم الذى تعبِّر عنه الفطرة السليمة والقلب الخالى من الأمراض أن ما خلقه الله تعالى كاف للاعتبار لمن أراد أن يعتبر، وما علينا إلا أن نتأمل فى هذا الكون الفسيح ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونـــس: الآية ١٠١).

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ (آل عمران: الآية ١٩٠).

فلا تطلبوا يا أمة الإسلام مزيدا من الآيات بعد ما خلقه الله لكم، ولا تفعلوا فعل ثمود وفعل كفار مكة، بل اعتبروا بما خلق لكم، لكيلا تجلبوا غضب الله عليكم بتكذيبكم بما طلبتموه، فلن يكون حالكم مع الآية التى طلبتموها أحسن حالا من ثمود.

الأب الذى يُنعم على ولده بكل النعم، ويؤتيه ما لذ وطاب من صنوف العيش وألوان النعيم دون أن يطلبها ـ إذا ما طلب ولده منه شيئا تافها أقل مما آتاه من نعم استثار ذلك غضبه، وتوعده بقوله : لو أنى آتيتك بما طلبت ـ وهو سهل على لأنه لا يساوى ما آتيتك به من قبل ـ أكنت مستجيبا لى سامعا لما آمرك به؟

لو أنى أتيتك بما طلبتَ فكذبتَ وأبيت إلا الخروج عن طاعتى فلن يكون لك عندى إلا العقاب والعذاب!

ولله المثل الأعلى، فهذا شـأنه مع الأمم، أنه يؤتيهم من الآيات الكثيرة والنعم الوفيرة دون أن يطلبوهـا، ويدعـوهم رسـلهم إلى التأمل فـيها، كما قـال نبى الله صالـــح عليه الســـلام لثمـــود ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشـعراء: الآيات ١٤٦–١٥٠).

فـإذا طلبـوا المزيد على هذا نزل بهم العذاب إذا كذبـوا به، ولذا لما عقرت ثمود الناقة جاءهم العذاب بعد ثلاثة أيام.

ولذا كان هذا هو السر فى الإشارة إلى ثمود وتكذيبها بالناقة وعقرها لها بعد أن ذكر الله تعالى كل هذه الآيات فى مطلع السورة.

٣ - قولـه تعالـى « ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾»:

أقسـم الله بالعـصر على هـذه القضيـة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ إلا ما اسـتثنته الآية الأخيرة﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾.

والسؤال : لماذا القسم بالعصر بالذات على قضية خسران الإنسان؟ ما العلاقة بين الأمرين؟ ولماذا لم يكن القسم على هذه القضية بالشمس مثلا أو القمر؟

وحـدة العلاقـات فى النمـوذج فتحـت لنا ـ فى ورشـات معايشـة القـرآن ـ آفاقا من التدبـر، جعلـت عقولنا تتفاعل أكثر مع كتـاب الله تعالى، وكانت النتائـج مثمرة وفيها العلم الكثير، وبناء التصورات الصحيحة وتغيير القناعات عن العالم من حولنا.

وكان منتج هذا التفكير ما يلى :

العصر إما معناه الزمن والوقت مطلقا، وإما وقت العصر المعروف آخر النهار، والميل عندنا أن حمله على الوقت مطلقا أولى ليشمل كل الأوقات.

الإنسان منا ما هو إلا وقت وزمن، بمرور الوقت يكبر ويشبّ، ثم يصير كهلا وفى سن الأشد، ثم يصبح شيخا هرما، وفى كل هذه المراحل لا يفعل الإنسان لنفسه شيئا لكى ينتقل من مرحلة إلى أخرى، فقط مرور الوقت هو الذى يصيّره من حال إلى حال.

السعيد من مر عليه الوقت مستثمِرًا له، منتفعا به، فالوقت وعاء العمل وظرفه، والشقى من ملأ هذا الظرف بالمعاصى والذنوب، والخاسر من لم يقض وقته فى شىء نافع، تركه يمر بلا فائدة تعود عليه بالنفع فى المعاش والمعاد.

الفرق بين عالم مبجل وجاهل سفيه هو الوقت، كل استغل وقته بما صار إليه حاله، والفرق بين إنسان جاد يعيش حياته متحملا مسئولياته وتبعات معاشه وآخر مستهتر ضيع من يعول بعد أن ضيع نفسه ـ الفرق بينهما هو فى الإجابة على هذا السؤال : كيف استثمر كل منهما وقته؟

إذن قضية الوقت هى السبب فى خسران كثير من البشر، وكأن الله تعالى يعطى للوقت أهمية كبرى حين أقسم به، ويشير إلى أنه هو سبب خسر الإنسان، إلا المؤمنين الذين استغلوا أوقاتهم فى العمل الصالح، وتواصوا فيما بينهم بالتمسك بالحق وبالصبر الذى هو أيضا قضية وقت، فالتمسك بالحق وانتظار أن ينتصر على الباطل لا بد له من صبر يستغرق وقتا غالبا ما يطول فى عرف البشر، فانتصار الحق والصبر عليه قضية وقت أيضا.

وكأن السورة كلها فى موضوعها مرتبطة بالوقت والزمن.

وإذا افترضنا أن معنى ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ هو وقت العصر الذى يكون آخر النهار ـ كما ذهب إليه بعض المفسرين ـ فهذا أيضا يعطى أهمية لهذا الوقت الذى يغفل عنه كثير من الناس، ويميلون فيه للراحة والدعة بعد الفراغ من أعمال النهار، لكى ينتبهوا إليه ولا

يخسروا هذا الوقت الذى استحب فيه الشرع الذكر، لذلك امتدحت النصوص الذكر فى نهاية النهار ـ وقت العصر ـ وتارة يسميه القرآن العشى، وتارة الأصيل، وتارة قبل غروب الشمس.

قال تعالى ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف : الآية ٢٠٥).

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الإنسان : الآية ٢٥).

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ (طه : الآية ١٣٠).

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ (ق : الآية ٣٩).

أى صلاة الفجر وصلاة العصر فى هاتين الآيتين، ولذا جاء فى النصوص الحرص على هاتين الصلاتين، كما فى قوله ﷺ «من صلى البردين دخل الجنة»[١١] وقال «فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»[١٢] وجاء أيضا الحفاظ على صلاة العصر خاصة فى قوله تعالى ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ (البقرة : الآية ٢٣٨) وذمُّ من ترك صلاة العصر خاصة فى قوله ﷺ «الذى تفوته صلاة العصر كأنما وُتر أهلَه ومالَه»[١٣] وقال أيضا ﷺ «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»[١٤].

كل هذا يوضح أهمية صلاة العصر والذكر فى هذا التوقيت، وكأن غفلة الإنسان عن هذا الوقت يعد خسرا له.

١١- رواه البخارى : كتاب مواقيت الصلاة ـ باب فضل صلاة الفجر (٢/ ٦٣ـ ق ٥٧٤). ورواه ومسلم : كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب فضل صلاتى الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٣/ ١٤٥ـ ق ٦٣٥).

١٢- رواه البخارى : الباب السابق (ق ٥٧٣). ومسلم : الباب السابق (ق ٦٣٣).

١٣- رواه البخارى : مواقيت الصلاة ـ باب إثم من فاتته العصر (٢/ ٣٧ - ق ٥٥٢). ومسلم : المساجد ومواضع الصلاة ـ باب التغليظ فى تفويت صلاة العصر (٣/ ١٣٥ ـ ق ٦٢٦).

١٤- رواه البخارى : مواقيت الصلاة ـ باب من ترك العصر (٢/ ٣٩ - ق ٥٥٣).

٤ - سورة النبأ والعلاقة بين موضوعات السورة كلها :

هنا ننتقل إلى العلاقة بين المقاطع فى السورة الواحدة، والمقطع مجموعة من الآيات تتحدث عن موضوع واحد، ثم ننتقل إلى مجموعة أخرى تتحدث عن موضوع آخر، ودورنا فى نموذج التحليل والتدبر أن نبحث فى العلاقة بين المقاطع.

سورة النبأ ـ على سبيل المثال ـ بدأت بالحديث عن سؤال المشركين عن يوم القيامة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ وهنا ينتهى المقطع.

ثم تنتقل السورة إلى الحديث عن مظاهر الكون الملىء بالآيات ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ وهذا مقطع ثان.

ثم تنتقل السورة إلى مقطع ثالث تعود به إلى الحديث عن يوم القيامة الذى سألوا عنه فى المقطع الأول ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ ... إلى آخر الآيات التى عرضت لمشاهد القيامة، والحديث عن النار والجنة.

والسؤال الذى تطرحه العلاقات : لماذا تخلل الحديث عن مشاهد الكون بين الحديث عن مشاهد القيامة؟

القرآن ينتقل من الغيب إلى المحسوس ليستدل بالمحسوس على الغيب، فالذين يكذبون بيوم الدين لو نظروا تحتهم وفوقهم وما حولهم لعلموا أن الذى خلق هذا الكون بكل آياته لا يُعْجزه بعثُ الناس يوم القيامة.

وتدبيره لهذا الكون كله بنظام واتساق وحساب ـ كما تتحدث الآيات ـ فيه أكبر دليل على أنه سيدبر لهذا اليوم كما دبر لهذا الكون كله وسيَّره على نظام ومنهج.

وما وزّعه فى هذا الكون من نظام عادل وميزان وقسطاس سوف يكون هو منهجه وسنته سبحانه يوم القيامة، فالأرض مهاد بحساب ونظام، والجبال أوتاد لها بحيث

تثبتها ولا تثقلها فهى بحساب أيضا، والنوم سبات بحساب بحيث لو نقص عن المعتاد لم يكن كافيا، ولو زاد عن الحد انقلب إلى خمول وكسل، والمعصرات تنزل مطرها بحساب ينفع الأرض ولا يُغرقها، فكل شيء فى الكون موضوع على قانون العدل والقسطاس المستقيم.

وهذا شأنه ـ سبحانه ـ يوم القيامة، إقامة العدل والفصل بين الخلائق وردّ الحقوق إلى أهلها، لهذا ركزت السورة على الوفاق والحساب والجزاء الذى يحقق العدل كما تحقق فى صفحة الكون ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ ـ ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾.

وخلاصة الأمر أن القرآن لا يتكلم عن موضوعات مختلفة ـ وإن بدت فى ظاهرها كذلك ـ إنما يعرض صفحة واحدة وموضوعا واحدا وقضية واحدة، ولكن من زوايا مختلفة، فينتقل من المجهول إلى المعلوم ليستدل به على حقيقة المجهول لنا، وينتقل من جزئية لأخرى لينبهنا على قوة العلاقة بينهما إن تدبرنا وتأملنا.

لا أنسى فى أثناء التدبر فى ورشة من الورشات قالت بعض أخواتنا ونحن نتأمل فى العلاقات فى بعض الآيات : أصبحتُ أشعر أن القرآن كله كأنه يتحدث عن موضوع واحد.

نعم هذه هى الحقيقة التى شعرَتْ بها بالتدبر ومعايشة قليل من سور القرآن الكريم، قالتها بقلبها وأسلوبها الدال على التفاعل مع القرآن، نعم أدركتْ ما أدركه العارفون بالتدبر والتأمل.

٥ - سورة الكهف والعلاقة بين قصصها:

وردت أحاديث باستحباب قراءة سورة الكهف كل جمعة، وهذا يعنى أن المسلم إذا عمل بهذه النصوص أنه سيقرأ سورة الكهف مئات المرات فى عمره، بما يعنى أن لهذه السورة أهمية كبرى فى حياتنا، وأن بها من العبر والمناهج ما يستحق أن تُقرأ له ألوف المرات.

فى الظاهر أنها اشتملت على موضوعات وقصص شتى، ولكنها عند التدبر فى العلاقات تجدها موضوعا واحدا.

فقصصها الأربع تُشكِّل وحدة متماسكلة، وصفحة واحدة، هى صفحة الصراع بين الحق والباطل، وما يحتاجه هذا الصراع من فقه وفهم وتعلُّم وتدريب.

ففى بداية السورة تُعرَض قصة أصحاب الكهف، هذه الفئة المؤمنة التى جاهدت وضحّت فى سبيل الحق وإعلاء كلمته.

وفى وسط السورة قصة الصاحبين اللذين آتى الله أحدهما جنتين من أعناب ونخل وزرع وكان كافرا لا يؤمن بالله تعالى، والآخر مؤمن ينصح الأول ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾.

وفى آخر السورة قصة ذى القرنين، هذا الملك المؤمن الذى وسّع الله فى ملكه ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

تمثل هذه القصص الثلاث شيئا واحدا فى صوره المختلفة وحالاته المتباينة، وهو الصراع بين الحق والباطل، الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل حسب حال الاستضعاف والاستقواء، حسب حالة التمكين لكل من الفريقين.

أحيانا يكون أهل الباطل ممكنين أقوياء، لهم الغلبة والسيطرة والقوة الظاهرة، وفى المقابل يكون أهل الحق مستضعفين بدينهم، قد يُضطرون إلى إخفاء إيمانهم، وأحيانا الفرار بدينهم.

تمثل قصة أصحاب الكهف هذه الصورة من هذا الصراع، حيث يكون الباطل منتفشا، يبدو قويا، ويستخدم هذه القوة للصد عن سبيل الله ومقاتلة أهله.

وتمثل قصة ذى القرنين عكس الصورة السابقة، فأهل الحق فى صورة ذى القرنين هم أصحاب القوة، ويستعملون هذه القوة فى نشر الخير فى الأرض ومنع المفسدين من الفساد فيها.

وتأتى القصة الوسطى لتمثل الصراع بين الحق والباطل فى صورة الصاحبين وليس لأحدهما غلبة على الآخر.

والصراع بين الحق والباطل على مستوى الأفراد والجماعات والدول لا يخرج عن هذه الصور الثلاث، إما غلبة لأهل الباطل، وإما تمكين لأهل الحق، وإما أن تتساوى الكفتان بينهما وليس لأحدهما سلطان على الآخر.

والأمة الإسلامية ـ على مستواها كلها وعلى مستوى أفرادها ـ يجب أن تتعلم كيف تتفاعل مع هذا الصراع بشكل صحيح، وكيف تتخذ المنهج الأمثل فى التعامل معه.

والسورة الكريمة ـ التى نقرؤها كل جمعة، وكثير منا يحفظها أو يحفظ الكثير منها ويحكى قصصها الثلاث للأطفال ـ قد عرضت للمنهج الأمثل فى التعامل، وتعلِّمُنا المنهج فى كل حالة، فحين يكون الباطل قويا له سلطته وقوته وأدوات القمع التي يبطش بها علمنا الله أن المنهج والأسلوب الذى نتبعه هو ما قاله أصحاب الكهف ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾.

وحين كانت القوة مع ذى القرنين القائم بالحق علمنا الله أن المنهج المتبع فى هذه المرحلة ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ يعنى بلغتنا العصرية ـ الأخذعلى يد الظالمين الفاسدين والبلطجية والسفاكين للدماء والأكالين للمال العام.

أما فى حالة تساوى الطرفين كما فى قصة الصاحبين فالمنهج هو ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ منهج النقاش والحوار وتبادل وجهات النظر بدون صراع ولا شجار ولا تطاول بالألسنة.

قصص ثلاث ومناهج ثلاثة تمثل حياة الأفراد والجماعات والأمة المسلمة، لا يخلو يوم المسلم المستمسك بدينه من حالة من هذه الحالات الثلاث، بل قد يتقلب فى اليوم الواحد بين هذه الحالات، فيكون فى عمله صباحا مستضعفا بدينه، لا يستطيع أن يصدع ببعض الحق أو ببعض شعائره الدينية بسبب أن المكان الذى يعمل فيه يغلب عليه عدم التدين والالتزام، وهو فى طريقه إلى عمله أو إلى بيته راجعا من العمل قد يُجرى حديثا مع من بجواره فى (وسيلة المواصلات) ويمثل هذا مشهد الصاحبين فى السورة حيث ليس لأحدهما سلطان على الآخر.

ثم يصل إلى بيته فيدخله ممكَّنًا له القوة والغلبة فيه، يحكم فيه ويأمر وينهى كيفما يشاء بما يمثل غلبة سلطان الحق.

فهى إذن حالات تمثل أدوارا فى حياة المسلم، وفى كل دور عليه أن يتبع المنهج الصحيح والطريقة المثلى فى التعامل والتفاعل مع المجتمع.

إن سورة الكهف تُقرأ كل أسبوع لترسم للمسلم استراتيجيات عمله أثناء الأسبوع ومنهجياته فى التعامل مع الناس، فهل عقلنا الأمر وفهمنا مقصد الشرع من هذه السورة العظيمة وفهم العلاقات بين قصصها الثلاث؟

والأمر لا شك صعب ويحتاج منا إلى فهم وتعلم وتدريب وإدراك بأن بواطن الأمور ـ كثيرا ما ـ لا تكون مثل ظواهرها، وأن حقائق الأشياء تحتاج إلى كبير فهم وصبر. فانتصار الباطل فى الظاهر ليس نصرا حقيقيا وإنما هو انتفاخ فى حالة مرضية، وورم قد نحسبه شحما ولحما، وعلى المسلم أن يدرك الحقيقة ويصبر على الحالة الراهنة، ويعمل من أجل النصر الحقيقى للحق وأهله، وأن يكون أحد صناع هذا النصر بما استخلفه الله تعالى فى هذه الأرض.

الأمر كما قلت ليس سهلا، بل يحتاج إلى تدريب وتعلم وأن يبذل المسلم قصارى جهده فى هذا التعلم.

وهذه هى الحكمة فى القصة الرابعة التى تخللت بين هذه القصص الثلاث، قصة موسى مع الخضر عليهما السلام.

القصة التى تمثل جهاد موسى عليه السلام لكى يتعلم، رحل وتعب من أجل التعلم ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ حاول الخضر عليه السلام أن يدرِّبه على الصبر بالسكوت عما يفعل، ولكن الأفعال كانت أقوى من صبر موسى عليه السلام فلم يصبر.

تمثل القصة هذا الاختلاف بين حقائق الأشياء وظواهرها بما فعله الخضر عليه السلام، فقد بدت أفعاله مستنكرة، ولكنها فى الحقيقة خير كبير ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾.

حقا الصراع بين الحق والباطل يحتاج إلى كل هذه المهارات، الصبر والتدرُّب على السكوت أحيانا، أو الكلام بحساب، يحتاج إلى إدراك الحقائق بكثرة التدبر والتمعن فى عالم البشر والأشياء.

إنها قصة الصراع بين الحق والباطل وما تحتاجه من مهارات وإجراءات مُحْكمة، وتدابير متقنة، ومهارات يتدرب عليها المسلم.

إنها قصة الصراع التى بدأت من لدن آدم عليه السلام فى قصة إبليس وامتناعه عن السجود، ثم بقصة الصراع بين ابنيه التى انتهت بأن قتل أحدهما الآخر، ثم تأتى حلقات قصة الصراع فى كل ما حدث للأنبياء والصالحين مع أقوامهم، من لدن نوح عليه السلام إلى أن ختمت برسولنا ونبينا ﷺ، وتمثل أمة الإسلام آلاف القصص من الصراع بين الحق والباطل خلال فترات الأمة المختلفة، وما نعيشه من أحداث ما هو إلا حلقة من هذه القصة، ولسوف تكتمل الحلقات كلها عند قيام الساعة.

خلاصة الأمر أن سورة الكهف ليست قصصا مختلفة وأحداثا لا علاقة بينها، بل هى موضوع واحد تعالجه السورة فى حالات مختلفة، فموضوعها هو الصراع بين الحق والباطل وما يحتاجه أهل الحق من منهجية للتعامل والتدريب عليه.

لم يبق فى السورة بعد ذلك إلا أن تتأمل فى افتتاحيتها ونهايتها وبعض الآيات التى تخللت هذه القصص الأربع، وسوف أترك لك التدبر – من خلال ما تعلمته فى العلاقات– فى إيجاد الروابط بين كل هذا، فقط تدبرْ وسوف تجد الخير الكثير.

كلمة عن العلم الكثير فى العلاقات :

معلوم أن القرآن متناهٍ فى كلماته، يعنى أن كلماته محدودة معلومة كلمة كلمة من بداية القرآن إلى نهايته، ولكنَّ معانيه غير متناهية، ولا تحدُّها أى حدود، فقد أودع الله فيه من المعانى ما لا يمكن حصره، وبقدر إيمان العبد وفهمه وفقهه وتلقيه عن الله تعالى وتدبره للقرآن ـ يفتح الله تعالى عليه من المعانى الخير الوفير، وعلى قدر الاجتهاد يأتى الإمداد.

ولا تزال المعانى القرآنية تتجدد من زمان إلى زمان، ومن شخص لآخر، ولا تنتهى عجائب القرآن أبدا.

وللقرآن طرق فى عرض هذه المعانى التى لا تنتهى والتى نجتهد فى استنباطها، منها على سبيل المثال أن تصاغ الآية بطريقة بحيث تحتمل أكثر من معنى، وتفسر بأكثر من طريقة، وكلها تكون معانى صحيحة ويحتملها لفظ الآية الكريمة، وكتب التفسير مشحونة باختلاف المفسرين فى الآية الواحدة، وغالبا ما تكون الآية محتملة لكل المعانى، وهذا أمر قديم ومعروف.

أما الطريقة التى معنا والتى يستخدمها القرآن الكريم لكى يجعل معانيه كثيرة ـ فهى طريقة العلاقات، وهو مجال جديد للبحث نرجو أن يجد طريقه للتفعيل على مستوى الدعوة والتعليم، وعلى مستوى البحث الأكاديمى والتصنيف لاستخراج كنوز القرآن ومعرفة أسراره.

اكتشاف العلاقات بين الجمل والآيات فيه علم كثير، ونستطيع أن نستخرج به منهجيات وحِكم وقواعد وفنون من المعرفة ترسم للمسلم حياة صحيحة، وقلبا سليما، وعقلا راشدا، فقط علينا أن نطرح سؤالا أو أسئلة: ما العلاقة بين هذه القضية وتلك؟ لماذا جمع الله بينهما فى هذا الموضع؟

أمثلة من ورشات معايشة القرآن :

فى سورة الهمزة تساءلنا : لماذا جمع الله بين الهماز اللماز مع جمع المال وتعديده ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ وكانت الإجابة بعد التدبر بسيطة، وهى أن أكثر الهمز والاستهزاء بالناس يكون من أرباب الأموال ومُحْصيها، فترَفُهم جعلهم يتعالَون على الخَلْق ويظنون أنفسهم أن لهم مكانة وفضلا على الناس بهذا المال، فأسهروا ليلهم فى المعاصى والفتن وأحاديث السمر بالغيبة والاستهزاء بالآخرين.

إذا فهم المسلم هذا من كتاب الله تعالى حذِرَ من هذا الأمر وعلم أن ماله قد يكون وبالا عليه وأنه لن يخلد به، على عكس هذا المستهزئ المختال بماله الذى ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ ولذا جاء الوعيد والتهديد لهؤلاء مستغرقا بقية السورة لردعهم لعلهم يعودون إلى رشدهم ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾. إن الاستهزاء بالناس والوقوع فى أعراضهم لمن أشد الكبائر، وليس فى القرآن إلا سورتان تبدآن بهذا الوعيد ﴿وَيْلٌ﴾ إحداهما تتعلق بانتهاك حرمة أعراض الناس، وهى هذه السورة، والأخرى تتعلق بانتهاك حرمة أموال الناس، وهى سورة المطففين التى بدأها الله بقوله ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ وفى مرة أخرى تساءلنا فى بعض الورشات عن العلاقات فى قوله تعالى فى سورة البلد ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾.

العلاقة واضحة بين الآية الأولى والثالثة ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ و ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ والسؤال : لماذا تخللت هذه الآية بينهما ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾؟ تناقشنا متدبرين فى هذا وكانت النتيجة أن القرآن الكريم يهتم بقضية المال اهتماما عظيما لما يشكّله فى حياتنا من أهمية كبرى، فهو الذى يُسأل عنه العبد يوم القيامة سؤالين : من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟

وهذه العبارة القرآنية ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ - أى مالا كثيرا - هى عبارة إنسانية، بمعنى أنها تتكرر دائما فى كل زمان وفى كل مكان، قد تختلف الألفاظ ولكن المعنى واحد، دائما يقول الناس تباهِيًا : لقد أنفقنا الكثير على تربية أولادنا - أنا أنفق على أسرتى كذا فى الشهر - لقد حصلت على شهادة كذا بمبلغ كذا - جهزت ابنتى العروس بكذا من الأموال الطائلة.

إذن قضية أن يذكر الإنسان ما أنفقه بالقول هى قضية إنسانية، ولذا جاء تعبير القرآن عنها بذكر ما يقوله الإنسان فيها ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ وليس حكاية عما أنفقه، فلم تقلالآية مثلا : ينفق الإنسان مالا لبدا، بل جاءت بما يقوله ويذكره أمام الناس عن نفقاته، لتكون الآية أكثر واقعية بحكايتها نص ما يقوله الإنسان عن نفسه.

هذه القضية التى تتعلق بإنفاق المال وإهلاكه فى شتى شئون الحياة ومتطلباتها - لما لها من خطر عظيم على مستوى الأفراد والأمة - أراد الله أن يحوطها بهذه الرقابة الإلهية المغلَّفة بالتهديد ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ و ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾. فإذا كنت تنفق أيها الإنسان مالا كثيرا فلا تظن فى نفسك القدرة والسطوة بهذا المال؛ لأنه هناك من هو أقدر منك، وهناك من يراك حين تنفق ويعلم بحالك فاحذر أن يراك وأنت تنفق فى غير معروف.

المسلم حين يعلم قدرة الله عليه قبل الإنفاق فلا يغتر بماله ولا يستقوى به على الناس، وأثناء الإنفاق يحتاج إلى استحضار رؤية الله تعالى له فلا ينفق إلا فى بر وخير ؛ ولذا كان المناسب تقديم القدرة على الرؤية.

فحصر الله تعالى إنفاق المال بين قدرته على الإنسان، ورؤيته له، ولا نظن عاقلا يحصر قضية إنفاقه للمال بين استحضار قدرة الله ورؤيته له - يحيد عن منهج الله تعالى فى هذا المال الذى أعطاه له ليقيم به أمور الدين ومصالح الدنيا.

وهكذا يكون التدبر فى العلاقات بين الآيات مُنتجا للعلم والفوائد الثمينة، فقط لنطرح أسئلة العلاقات وندع للعقل أن يتفكر ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (آل عمران : الآية ٧).

***

الفصــل الثالـث

الوحدة الثالثة من النموذج
(المُغايَــرات)
فى الموضع - بين المواضع

القرآن لا يسلك طريقة واحدة فى الأسلوب، بل يغاير فى ألفاظه وفى أسلوبه، ويغاير فى التعبـير ؛ فـلا يعبر بما تتوقعه أنت، ويأتى بما لم تكن تحتسـب، فيقدم تارة لفظة على أخرى، وفى موضع آخر أو فى نفس الموضع ربما يقدم ما أخره من قبل، وهكذا يفعل القرآن دائما.

وهـذه الوحدة مسـتحدثة فى النموذج، فلم تكن موضوعـة فيه حين بدأت التدريب عليـه مـع المجموعات الأولى، وقد فتـح الله تعالى بها، ولكنى تـرددت فى ذكرها فى هذا النموذج، وظلّت فى ذهنى أتدبر بها القرآن وأُدخلها فى منظومة تفكيرى وأنا أتلو القرآن حتى قويت فى عقلى، وكثرت أمثلتها المتنوعة، ورأيت أن مغايَرات القرآن تشكّل ظاهرة جديرة بالذكر والتدبر، فأدخلتها مؤخَّرا ضمن وحدات النموذج، والله تعالى الموفق.

كـما رأيـت أن الموضع المناسـب لهـذه الوحدة هـو ذكرها بعـد الوحـدة الثانية، بعد اسـتدعاءات الاسـتعمالات فى الوحدة الأولى وتدبر العلاقات فى الثانية، هنا سـيلاحظ المتدبر مغايرات فى التعبير القرآنى سـواء فى السـياق نفسـه بتدبر العلاقات، أو بين هذا الموضع والمواضع الأخرى التى استدعاها فى الاستعمالات.

عـلى أن الترتيـب فى وحدات هـذا النموذج هو ممـا تختلف فيه وجهـات النظر، فقد خالفنى بعض المتدربين فى ترتيب بعض الوحدات، والأمر واسع وقابل للاجتهاد.

أولا : المغايَـرة فـى نفـس الموضـع :

* يقـول تعـالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (الجمعة : الآية ١١).

فتأمل كيف قدم التجارة على اللهو فى أول الآية، ثم غاير فقدم اللهو عليها فى آخرها.

قدمت التجارة أولا؛ لأنها كانت سبب النزول، فهو يصف المشكلة كما حدثت، حين جاءت تجارة من الشام فانفض إليها الناس وتركوا النبى ﷺ قائما يخطب، ثم ذكر اللهو بعدها لأنه ناتج عما حدث، فكل تجارة شريفة ألهت المسلم عن عبادة ربه وأداء فريضته صارت لهوا مذموما، ولكى يعمم القضية فلا يحصر الأمر على التجارة وإنما يشمل كل لهو، هذا سبب تقديم التجارة على اللهو.

أما فى الموضع الثانى فقد قدم اللهو على التجارة ؛ لأنه يقدم الحل للمشكلة، فالحل هو ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ﴾ فما عند الله تعالى خير من كل لهو يلهى المرء عن طاعة ربه ولو كانت تجارة.

* يقول تعالى ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق: الآية ٧) .

القرآن كثيرا ما يذكر شيئين متقابلين، فيغاير بينهما فى التعبير؛ كأن يوجز فى أحدهما ويطنب ـ يطيل ـ فى الآخر، كما فى هذه الآية الكريمة.

فانظر كيف جعل نصيب الأغنياء ذوى السعة جملة واحدة ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ﴾ أما الفقراء الذين قُدر عليهم رزقهم فكان نصيبهم بقية الآية ثلاث جمل :

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ﴾ .

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾ .

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ .

وذلك للاهتمام بهم، وتخفيفا عنهم فى التكليف بأنهم لا يكلفون أكثر مما آتاهم الله، وتبشيرا لهم بتفريج الكربة وأن حالة العسر سوف تنقلب إلى يسر. فالقرآن إذن غاير فى التعبير ـ من حيث الإيجاز والإطناب ـ بين الفريقين الأغنياء والفقراء، أو بين حالتى الغنى والفقر. وخذ هذه القاعدة التى توصلنا إليها بكثرة التدبر فى المغايرات :

(إذا وجدت القرآن يقارن بين فريقين أو حالتين فتوقع المغايرة فى الأسلوب والتعبير).

وهذه الآية على وجه التحديد فيها أنواع بديعة من المغايرات الأخرى :

* **منها :** أنه قدم الأمر بالإنفاق لذى السعة الغنى على وصفه بالسعة ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أما الفقير ففقدم وصف حالته على الإنفاق ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ لينبه الأول على أهمية الإنفاق بالنسبة له وأنه ينبغى أن يقدمه ويسارع به لوجود السعة والغِنى، أما الثانى فالنظر إلى حالته مرعية ولا يعاتب على إبطائه أو على قلة النفقة.

* **ومنها :** أنه جعل الإنفاق من سعة الغنى منسوبة إليه ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أما الفقير فجعل نفقته ﴿مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ فنسب ما آتاه من مال قليل إليه تعالى، تنبيها على شرف مكانته عند الله ولُطفًا به وتسْريةً عنه.

* **ومنها** : أنه ذكر الرزق مع الفقير ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾، ولم يذكره مع الغنى، وإنما سمى حالته سعة، وفى هذا إشارة إلى مكانة الفقير أيضا وأن ماله القليل رزق مبارك من الله تعالى، وأن هذا نصيبه من الرزق ولن يأخذ المرء أكثر من رزقه، وأن الرزاق سبحانه عنده الرزق الوفير، وإنما هو ابتلاء فحسب فى هذا الوقت العارض.

* **ومنها :**أنه لما ذكر الغنى عبر عنه بهذا التعبير ﴿ذُو سَعَةٍ﴾ بالوصف بالاسم الذى يفيد اللزوم، أما الفقير فذكره بهذا التعبير ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ بالفعل الدال على الماضى، تنبيها إلى تغير الحال وأن فقره مسألة عارضة وسوف تزول، وقد جاء به مبنيا للمجهول تأدبا مع الله فى عدم نسبة تضييق الرزق إليه، فليتزمْ العباد فى وقت الضيق أن يقولوا : ابتلينا بكذا من المصائب، ولا يقولوا : ابتلانا الله بالمصائب.

وهذا أيضا كقوله تعالى ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ (الجن: الآية ١٠) حيث بنى الفعل ﴿أُرِيدَ﴾ للمجهول فى حالة الشر، وبناه للمعلوم وسمى فاعله وهو الله تعالى فى حالة الخير والرشد.

وشبيه بهذه المغايرة أن ينسب الفعل إلى الله تعالى فى الخير، وينسب إلى العبد فى الشر تأدبا مع الله تعالى، كما فى قصة موسى مع الخضر عليهما السلام فى سورة الكهف، ففى موقف خرق السفينة وإحداث العيب فيها نسب الخضر فعل الإرادة إلى نفسه فقال ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وفى موقف الجدار والخير الذى صنعه للغلامين اليتيمين نسب فعل الإرادة إلى الله تعالى فقال ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

المقابلة بين شيئين بأسلوب الاحتباك:

من المغايرات القرآنية البديعة ما يسميه القدماء بأسلوب الاحتباك، والزركشى سماه فى «البرهان» الحذف المقابلى[15].

ومثاله قوله تعالى ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ (آل عمران: الآية ١٣) فالآية تعقد مقارنة بين فئة مؤمنة تقاتل فى سبيل الله، وفئة كافرة تقاتل فى سبيل الطاغوت والباطل.

إذن الاحتباك مقارنة بين طرفين، كل واحد من الطرفين يتكون من جزءين أو صفتين.

* **الطرف الأول (الفئة الأولى) :** ١ - فئة مؤمنة ٢ - تقاتل فى سبيل الله
* **الطرف الثانى (الفئة الثانية) :** ١ - فئة كافرة ٢ - تقاتل فى سبيل الطاغوت

فجاءت الآية الكريمة وحذفت جزءًا من كل طرف وذكرت ما يقابله فى الطرف الآخر.

فحذفت الجزء الأول من الطرف الأول (فئة مؤمنة) وذكرت ما يقابله فى الطرف الثانى (وأخرى كافرة) وحذفت الجزء الثانى من الطرف الثانى (تقاتل فى سبيل الطاغوت) وذكرت ما يقابله فى الطرف الأول ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وكأن الآية تقول : فئة مؤمنة تقاتل فى سبيل الله، وأخرة كافرة تقاتل فى سبيل الطاغوت.

---

١٥ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى (/ ١٢٩) الناشر : دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركائه - الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

بعد هذا يمكنك فهم تعريف الاحتباك :

يعرفه السيوطى بقوله : «وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى، ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول»[١٦].

وقال عنه : «وهو من ألطف الأنواع وأبدعها، وقل من تنبه له أو نبه عليه من أهل فن البلاغة... وهو نوع عزيز»[١٧]

وأسلوب الاحتباك نوع من المغايرات لأنه لا يذكر فى كل طرف ما يقابله فى الطرف الآخر، وإنما يغاير فيذكر ما يقتضيه مقابله أو ضده، ففى الآية السابقة ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ لما ذكر الفئة الأولى التى تقاتل فى سبيل الله كان من المتوقع أن يذكر الفئة الأخرى بأنها تقاتل فى سبيل الطاغوت والباطل، ولكنه ذكرها بمقتضى ذلك، ذكرها بأنها كافرة والكفر يقتضى أنها تقاتل فى سبيل الطاغوت. ومثاله أيضا قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ (هود : الآية ٣٥) والمعنى : فعلّى إجرامى وأنتم برءاء منه، وعليكم إجرامكم وأنا برىء مما تجرمون.

ومنه قوله تعالى ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (الأنبياء : الآية ٥) تقديره : إن أرسل فليأتنا بآية كما أرسل الأولون فأتوا بآية.

والمتوقع إذا قارن القرآن بين أمرين أن يذكر الشىء وضده، ولكن القرآن كثيرا ما يذكر الشىء وما يستلزمه الضد، وليس الضد نفسه، وهذه الظاهرة ملاحظة فى سورة الجن، قال تعالى : ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ فلم يقل (أم أراد بهم ربهم خيرا) فى مقابل قوله ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بل ذكر الرشد الذى هو لازم الخير.

وقال تعالى فى السورة نفسها ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

١٦- الإتقان فى علوم القرآن (٣/ ٢٠٤).

١٧- السابق.

هذه الآيات تتحدث عن فريقين، فريق المسلمين المؤمنين المهتدين، وفريق القاسطين الظالمين الضالين، تقابل وتقارن بين هاتين الصورتين من الناس، وطبقا للقاعدة السابقة حيثما وجدت القرآن يقارن بين صورتين أو فريقين أوحالتين فتوقع هذه المغايرات، سواء بالاحتباك أو بغيره.

ولنتأمل المغايرات فى هذه الآيات :

١ - المغايرة بالتعبير بالشىء ولازم ضده - كما سبق بيانه - حيث سمى الفريق الأول المسلمين، ولم يسم الثانى بضده وهو الكافرون، وإنما سماه ملازم الكفر ﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ أى الظالمون.

٢ - الجواب مختلف فى الحالتين، ففى حالة المسلمين جواب الشرط ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ حيث ذكر أن من أسلم فقد تحرى الصواب وطريق الهدى، فنص على طريقتهم فى الاهتداء وهو التحرى والبحث عن الحق، ولم يفعل ذلك فى القاسطين، فلم يذكر مثلا أنهم تحروا ضد الرشد وهو الضلالة والغواية، وإنما ذكر دخولهم جهنم ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، ومعلوم أن دخول جهنم هو لازم لضد الرشد، فكأن الآية تقول: فقد تحروا ضلالة - فى مقابل المسلمين الذين تحروا رشدا - فكانوا لجهنم حطبا.

كما أن الآيات فيها مغايرتان أخريان من نوع آخر :

٣ - حين تحدث عن المسلمين قال ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ ولم يسلك نفس الطريقة مع الفريق الآخر فلم يقل (ومن قسط) كما قال ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ وإنما عبر عنهم باستعمال الاسم ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾.

٤ - أوجز فى الحديث عن المسلمين، وأطال فى الحديث عن القاسطين، فبينما كان حظ المؤمنين هو قوله ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ كان حظ القاسطين أكثر من هذا فى الحديث عنهم ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

* يقـول تعالى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (فصلت: الآية ١٧).

فتأمـل كيـف قال ﴿ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ فذكر العمـى ولم يذكر ضده وهو الإبصار أو التبـصُّر، وإنما ذكر الهدى الـذى هو لازم التبصر وناتجه، فلم تقـارن الآية بين (الضلالة والهـدى) وهما الضـدان المعروفان، ولم تقـارن بين (العمى والإبصـار) وإنما قارنت بين العمى وما ينتج عن ضده وهو الهدى.

وفى هذا ـ وكل ما سـبق ـ احتباك وإيجاز، فكأن الآية تقول (فاسـتحبوا العمى الذى أدى بهم إلى الضلالة على الإبصار الذى يؤدى إلى الهدى) فسكت فى كل طرف عما يفهم مـن ذكـر ضده فى الطرف الآخر، فلـم يذكر الضلالة فى الطرف الأول وإنما أشـار إليها حين ذكر ضدها وهو الهدى فى الطرف الثانى، ولم يذكر الإبصار فى الطرف الثانى وإنما أشار إليه حين ذكر ضده وهو العمى فى الطرف الأول.

وهذا لا شك إيجاز بديع، كما أن فيه دعوة إلى التدبر لاستنباط المسكوت عنه، كعادة القـرآن دائما أنه لا يصرح بكل شـىء، بل يترك مسـاحة لأهل القـرآن المتدبرين العالِمين حتى لا يستووا مع غير المتدبرين.

والسؤال الذى يطرح نفسه : لماذا ذكر فى كل طرف هذا الجزء على وجه التحديد وسكت عن الجزء الآخر؟

لماذا ذكر فى الطرف الأول العمى، وفى الثانى الهدى؟

لمـاذا لم تكـن الآية على هـذه الصورة (فاسـتحبوا الضلالـة على الإبصـار)؟ وحينئذ سنستنبط المسكوت عنه (العمى والهدى) بنفس الطريقة.

والجواب أن القرآن يدعو إلى استعمال الإنسان لأدواته من السمع والبصر والفؤاد فى التأمل والتفكر، فإذا استعملها متجردا عن الهوى هُدى إلى صراط مستقيم، وكأن الآية تنكر عليهم أنهم اسـتحبوا ألا يسـتعملوا عقولهم وأن يعطلوا أسماعهم عن سماع الحق، فهم بذلك يستحبون العمى الذى نتيجته ولا بد الضلالة.

والهـدى هو المحصلة لمن اسـتحب إعـمال عقله وفكره، وهو الثمرة التى أُرسـل من أجلهـا الأنبيـاء، وكأن القـرآن يقـول : تحصيل هذه الثمـرة العظيمة بأن يترك الإنسـان العمى، عليه فقط أن يُعمل سمعه وبصره وفؤاده وسوف يصل إلى الهدى لا محالة.

فالآية ـ إذن ـ تستنكر طريقة تعامل الناس مع الحق، ولو أنهم تركوا لأنفسهم مساحة لأن يَعُوا ما يقال، وأن يتدبروا فيما يدعو إليه الرسل لكانت النتيجة مختلفة.

وكأن القرآن يقول للناس فى كل زمان ومكان : تعاملوا مع كل ما يقال ويحدث من حولكم بغض النظر عن كونه حقا أو باطلا ـ بطريقة صحيحة، طريقة تعتمد على التعقل والتفكر لا العمى والغفلة، لا ترفضوا ما يقال لمجرد أنه جديد، بل اسمعوه أولاً وافهموه وتأملوا فيه، فإذا كان حقا ستقبلونه ما دمتم سالكين لهذه الطريقة، وإذا كان باطلا رفضتموه بنفس الطريقة.

وخلاصة الأمر أن الاحتباك الذى ذكره بعض العلماء هو نوع من أنواع المغايرات القرآنية فى التعبير، ويحتاج إلى مزيد من التدريب وإعمال العقل والنظر.

* يقول تعالى : ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴾ (الأحزاب: الآية ٧٣).

اشتملت هذه الآية الكريمة على أنواع بديعة من المغايرات فى المقارنة بين الفريقين:

١ - ذكرت العذاب للمنافقين والمشركين، ولم تذكر ضده مع المؤمنين وهو النعيم أو إدخال الجنة مثلا، بل ذكرت لازم الضد فقالت ﴿ وَيَتُوبَ ﴾ وهذا احتباك أيضا، والمعنى : ليعذب الله المنافقين... ولا يتوب عليهم، وينعم المؤمنين ويتوب عليهم.

٢ - فصّلت الطرف المذموم فذكرت فيه نوعين (المنافقين والمشركين) أما الطرف الممدوح فلم تذكر فيه إلا (المؤمنين).

٣ - ذكرت الآية التفصيل هنا فى الذكور والإناث (المنافقين والمنافقات) و(المشركين والمشركات) و (المؤمنين والمؤمنات) على غير الغالب فى القرآن، حيث يكتفى التعبير بصيغة المذكر ليشمل به الجنسين.

وهذه مغايرة بالمخالفة بين المواضع كما سيأتى بيانه.

وفى هذه المغايرات حِكم وفوائد جليلة أترك لك إدراكها بالتدبر ـ كما تركتها فى بعض الأمثلة السابقة ـ إذ الغاية من تعداد بعض الأمثلة استثارة الذهن ودعوة العقل

للتفكر، وليس من قصدنا أن نصرح بكل شىء، ولعدم الإطالة فى هذا الكتاب الذى قصدنا منه شرح النموذج بالأمثلة الدالة عليه.

أمثلة تدريبية على الاحتباك:

حاول أن تستخرج الاحتباك وتذكر الطرفين وما حذف منك لطرف فى الآيات التالية:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ (البقرة: الآية ١٧١).

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ (التوبة: الآية ١٠٢).

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأحزاب: الآية ٢٤).

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ (محمد: الآية ٢٠).

﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ (الإنسان: الآية ١٣).

أنواع كثيرة من المغايرات:

سبق بيان أنواع عديدة من المغايرات من خلال الأمثلة السابقة، والمغايرات القرآنية أكثر من ذلك، وقد حاولت ـ على عجالة ـ حصرها وتصنيفها فأعيانى ذلك؛ وذلك لكثرتها وتشعبها واحتياجها إلى ابتكار مصطلحات جديدة نسمى بها هذه الأنواع الكثيرة، وربما أتفرغ لهذا مستقبلا فيعيننى الله تعالى على ما عجزت عنه الآن.

وقد رأينا بالأمثلة أن الآية الواحدة تشتمل على أنواع من المغايرات ربما كانت أكثر من عدد الجمل فى الآية.

ولا مانع من ذكر بعض الأنواع التى يمكن أن تكون أساسا لتصنيف المغايرات القرآنية:

١- **المغايـرة بالإيجـاز والإطناب :** كـما مر مثاله فى قوله تعـالى ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴾ (الطلاق: الآية ٧).

٢- **المغايرة بالزيادة والحذف :** وهذا له أقسام كثيرة، ومنه أسلوب الاحتباك كما سبق.

ومنـه أيضا قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴾ (مريـم: الآيـات ١٩-٢٠) فانظـر كيـف بشرها بغلام زكى، ولكنهـا فى تعجبهـا من البشـارة حذفت كلمة ﴿زَكِيّٗا﴾ ولم تنتبـه إلا إلـى قوله ﴿غُلَٰمٞ﴾ فقالـت ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ ﴾ لأنها من هول ما قيل لها لم تلتفت إلى كونـه زكيا، وانصرف ذهنها إلى هـذا الأمـر المروِّع: كيف يكون لى غلام ـ مجرد غلام ـ ؟

ومنه قوله تعالى ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴾ (المطففين: الآيات ١-٣).

ففى حالة شراء المطففين من الناس واستيفائهم حقهم منهم لم يذكر إلا الكيل ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ﴾ أمـا فى حالـة بيعهم للناس وغشـهم لهم زاد مع الكيل الـوزن ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ ﴾ ففصّل فى هذه الحالة اهتماما بها ؛ لأنها محل الذم والوعيد الذى افتُـتحت به السورة.

ومنـه قولـه تعـالى : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ ﴾ (الأعراف: الآية ٤٤)..

فحـذف الضمير (نا) المذكور فى قولـه ﴿ وَعَدَنَا ﴾ حين تحدث عن أهل النار ﴿ فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ ﴾.

٣- **المغايـرة بالتقـديم والتأخـير :** كما مر فى قوله تعـالى ﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ (الجمعـة: الآية ١١).

٤- **المغايرة بين صيغ الفعل :** فتارة يغاير بين الفعلين فيأتى أحدهما فى المضارع والآخر فى الماضى، كقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾ (فاطر : الآية ٢٩).

وتارة يغاير بين البناء للمعلوم والبناء للمجهول، كما مر فى قوله تعالى ﴿ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴾ (الجن : الآية ١٠).

٥- **المغايرة بين الاسم والفعل :** كما قال تعالى فى شأن داود عليه السلام ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾(ص: الآيتان ١٨، ١٩).

فعبر عن تسبيح الجبال باستخدام الفعل المضارع ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ وعبر عن حشر الطير باستخدام الاسم ﴿مَحۡشُورَةٗۖ ﴾ ولم يعبر بالفعل (يُحشَرْن) كما عبر مع الجبال.

٦- **المغايرة بين الاسم والجملة :** كقوله تعالى ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ (الذاريات : الآية ٢٥).

فكان تسليمهم بالاسم ﴿سَلَٰمٗاۖ ﴾ مفعولا للفعل (قالوا) أما تسليمه فكان جملة ﴿سَلَٰمٞ﴾ أى قولى سلام، فهو خبر لمبتدأ محذوف.

٧- **المغايرة فى الإعراب :** فتأتى الكلمة تخالف الإعراب المتوقع، كقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ (المائدة : الآية ٦٩) فجاءت ﴿ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾ مرفوعة بين منصوبات، وكان المتوقع (والصابئن) كما جاءت فى البقرة وفى الحج.

ومثله قوله تعالى ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء : الآية ١٦٢) جاءت ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ ﴾ منصوبة بين مرفوعات.

٨- **المغايرة فى إسناد الفعل ونسبة العمل :** فينسب العمل أو الفعل إلى فاعل مختلف مغايرةً لما سبق فى الإسناد، كما مر فى قصة موسى مع الخضر عليهما السلام فى نسبة الخضر لإرادة خرق السفينة إلى نفسه، ثم غاير فى قصة الجدار فنسب إرادة الفعل إلى الله تعالى، فقال ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

٩- **المغايرة بين لفظتين بنفس المعنى :** فيذكر اللفظة ثم يعيدها بمعناها لا بلفظها، كما فى لفظتى (سنة وعام) فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ (العنكبوت : الآية ١٤).

١٠- **المغايرة بالتعبير بغير المتوقع :** وهذا نوع من المغايرة يختلف عما سبق.

فقد تقرأ الآية أو تستمع إليها وتتوقع أن تُكمَل بشكل معين أو تختم بخاتمة معينة فيفاجئك القرآن بما لم تتوقعه، ويجعلك تتوقف أمام هذه المغايرة متأملا حائرا، وهنا يأتى دور التدبر وإمعان النظر لاكتشاف أسرار القرآن الكريم.

يقول تعالى ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ (المائدة : الآية ١١٨) حين تقرأ الآية تتوقع أن يكون الختام (فإنك أنت الغفور الرحيم) وإذا بالقرآن يختم الآية بقوله ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ويقول تعالى ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ (النور : الآية ١٥) وكان المتوقع (إذ تلقونه بأسماعكم ـ أو بآذانكم).

ويقول تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ (المائدة : الآية ١٠٩) والمتوقع أن تجيب الرسل بماذا أجيبت، ولكنهم ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

إذن هذا النوع من المغايرة ليس مغايرة بين تعبيرين ـ كما سبق فى الأنواع الأخرى ـ ولكنه مغايرة طرفاها ما كنت تتوقعه أنت وما فاجأتك به الآية، فهى مغايرة بين ما عبرت به الآية وتوقعك المبنى على المعتاد فى أسلوب الكلام.

هذا النوع دائما يطرح هذا السؤال : لماذا عبرت الآية بهذا التعبير ولم تعبر بكذا؟

أو : لماذا قال الله كذا ولم يقل كذا؟

ثانيا: المغايرة بين المواضع :

وهذا باب واسع أيضا، وهو مبنى على استدعاءات استعمالات القرآن للألفاظ والجمل والآيات سواء بلفظها أو معناها.

فحين تتبع الجملة أو الآية فى المواضع الأخرى التى وردت فيها تجد أن القرآن أيضا لا يسير على نسق واحد فى التعبير، فيحذف هناك ما ذكره هنا، ويذكر فعلا مختلفا غير الذى استعمله فى الآية الأخرى، ويقدم هناك ما أخره هنا، وهكذا يفعل القرآن ليترك لك مساحة من التدبر والتأمل. وما يسميه القراء بالمتشابهات مجال واسع لاستنباط المتغايرات.

اقرأ مثلا هاتين الآيتين، تتحدثان عن نفس الأمر فى موضعين مختلفين :

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة : الآية ٥٨).

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: الآية ١٦١).

إذا تدبرت فستجد ثمانى مغايرات :

١ – الفعل فى الأولى مبنى للمعلوم، وفى الثانية للمجهول (قلنا ـ قيل).

٢ – ذكرت الثانية لفظة ﴿لَهُمُ﴾ ولم تُذكر فى الأولى.

٣ – استعمل فى الأولى الفعل ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ وفى الثانية ﴿ٱسْكُنُوا۟﴾.

٤ – استعمل فى الأولى الفاء مع الفعل ﴿فَكُلُوا۟﴾ أما الثانية فاستعمل الواو ﴿وَكُلُوا۟﴾.

٥- ذكر لفظة ﴿ رَغَدًا ﴾ فى الأولى ولم تُذكر فى الثانية.

٦- قدم فى الأولى جملة ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدًا ﴾ على ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغۡفِرۡ ﴾ وفى الثانية عكس الجملتين.

٧- فى الأولى قال ﴿ خَطَٰيَٰكُمۡۚ ﴾ وفى الثانية قال ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ ﴾.

٨- فى الأولى قال ﴿ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ بالواو، وفى الثانية بدون الواو.

وسواء توصلنا إلى السبب فى كل هذا أم لا، أو توصلنا إلى بعضه دون بعض ـ فإن الأمر المسَلَّم به أن كل حرف وكل لفظة غاير فيها القرآن بين الموضعين له معنى ومغزى وحكمة، وليس هذا الأمر عريًا عن المقصد، كما نسلم بأن التوصل إلى هذا أمر ممكن بالتدبر وإمعان النظر، وليس مما استأثر الله بعلمه كما قد يتوهم البعض، فهو ليس كالحروف المقطعة ـ مثلا ـ فى بدايات السور، وليس من المتشابهات ـ ضد المحكمات ـ التى حكى الله تعالى عنها فى قوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (آل عمران: الآية ٧).

هذا وقد أجاب الفخر الرازى عن أغلب هذه المغايرات فى تفسيره لآية الأعراف، فليراجعه من شاء.

ومن هذا أيضا قوله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم : الآية ٣٤) نفس الآية كُررت مع مغايرة فى الختام ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النحل : الآية ١٨).

وكأن الله تعالى يقول بالمغايرة بين الختامين : مهما ظلم الإنسان نفسه وأنكر نعمة الله تعالى عليه فإن الله غفور رحيم يفتح باب التوبة للإنسان ليعود إلى الإقرار بنعم الله وفضله عليه.

ويقول الله تعالى ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (البقرة : الآية ١٢٥).

أمـا فى سـورة الحج فغايرت الآيـة فجعلت القائمين مـكان العاكفين ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

ومن فقه التدبر أنك إذا وجدت آيتين متشابهتين مع اختلاف فى لفظة أو أكثر فاعلم انهـا لحكمـة، ومـا عليـك إلا أن تتدبر وتربـط بين الألفـاظ المختلفة لتسـتخرج الكنوز القرآنيـة، كـما فى هـذا المثـال، وكأن الآية تريد أن تقـول : من عكف فى المسـجد ينبغى أن يكـون اعتكافه قيامـا وصلاة وطاعة، لا نوم أو أكلا وكلاما بين المعتكفين كما نراه فى مساجدنا من بعض المسلمين فى العشر الأواخر من رمضان.

وأكثر أنواع المغايرات التى سبقت فى (المغايرة فى نفس الموضع) يمكن أن تكون هنا أيضا فى المغايرة بين المواضع.

ومن المغايرات المشـهورة بين المواضع التقديـم والتأخير، حيث يقدم القرآن فى الآية مـا أخـره فى الآية أخرى، كـما فى تقديم اللعب عـلى اللهو فى كل مواضـع القرآن إلا فى موضعين:

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (الأعـراف : الآية ٥١).

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت : الآية ٦٤).

ومـن ذلـك أيضـا تقديم الجهـاد بالمال عـلى الجهاد بالنفس كقوله تعـالى ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة : الآية ٤١).

وقولـه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الصف: الآيتان ١٠، ١١).

إلا فى الآيـة واحـدة قـدم فيهـا النفس عـلى المـال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ ﴾ (التوبـــة: الآية ١١١).

وفى نفـس هذه المواضع أحيانا يقدم المجاهَـد به على المجاهَد فيه، فيقدم الجهاد بالمال والنفـس عـلى ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ كما فى الآية الأولى، وأحيانا يغاير فيقدم السـبيل عليهما كما فى الثانية.

وخلاصة الأمر أن كل هذه المغايرات لم تأت هكذا لتمر على المتدبرين دون أن يتوقفوا أمامها.

فقـط عليهـم أن يتدبـروا ويمعنـوا النظـر، والخـير الكثير والعلـم الوفـير فى التفكر والتدبر.

***

الفصل الرابع

الوحدة الرابعة من النموذج (السنن والقوانين الحاكمة) فى البشر ـ فى الأشياء

وهذا من أمتع وحدات التدبر فى هذا النموذج، والبحثُ فى سنن البشر وعالم الأشياء من حولنا يجعلنا أكثر فهما لكل شىء، وأكثر وعيا بما يصلح وما لا يصلح.

إن تفعيل القرآن فى الواقع يحتاج إلى أن نفهم سنن كل شىء وقوانينه، نفهم الإنسان بأغواره وطبيعة شخصيته، وما يحبه وما يكرهه، ونفهم خصائص الأشياء من حولنا، وبقدر فهمنا لطبيعة الأشياء وخصائصها نتمكن من التعامل معها ونستطيع تسخيرها وتذليلها لخدمة الإنسانية.

العلوم الاجتماعية تقوم على الاكتشاف والتعرف على خصائص البشر، والعلوم التجريبية تقوم على اكتشاف عالم الأشياء من حولنا.

وكلاهما ضرورى لعمارة الأرض وتحقيق معنى الاستخلاف فيها.

لكى أوضح المقصود من وحدة السنن والقوانين فى (دورة معايشة القرآن) مع المجموعات التى درّبتُها على استعمال هذا النموذج ـ قلت لأحد المتدربين : قم وحرك الكرسى الذى تقعد عليه من مكانه، فقام وحمل الكرسى وغيَّر مكانه، ثم قلت له : حرك هذا الحائط من مكانه، فقال على الفور : لا أستطيع فعل ذلك، قلت له : لماذا؟ قال: لأن الحائط لا يمكن تحريكه.

هذا هو المقصود بالسنن والقوانين، فتحريك الكرسى مبنى على معرفتك لطبيعته وسننه، إذن يمكن تحريكه، أما الحائط فمعرفتنا بطبيعته يقتضى إذا أردنا إزالته عن مكانه ـ أن تستدعى له عاملا معه أدوات الهدم، ويقوم بتكسيره شيئا فشيئا حتى يُزال عن مكانه، ثم نستدعى بنّاء بأدوات مختلفة واستخدام مواد معينة ويقوم ببنائه فى مكان آخر.

فانظر كيف تعاملنا فى الموقفين، مع الكرسى والحائط حسب طبيعة كل منهما، فلكل منهما سننه وقوانينه الحاكمة فى التعامل.

هـذا هو عين المقصود بوحدة السـنن والقوانـين فى هذا النمـوذج، أن نفهم الألفاظ القرآنية وتعاليم القرآن بسـننها وقوانينها سواء على مسـتوى البشر أو الأشياء الأخرى غـير الإنسـان، لكى نجيد التعامل معها وتحويل القـرآن إلى واقع عملى من خلال وضع إجراءات والتدرب على مهارات كما سيأتى فى وحدة (الإجراءات والمهارات).

فمعرفـة الإجـراء الـذى ينبغى أن نقـوم به لا بد أن يسـبقه أولا فهم طبيعة الأشـياء وقوانينها حتى نحدد وسائل التعامل وكيفياته وآلياته ومناهجه.

وعالم الأشـياء يشمل الأشياء الحسية مثل البحر والشمس والقمر والسماء والأرض والسـحاب وغيرها من الأشـياء التى لا تكاد تخلو منها آية، كما يشمل الأشياء المعنوية، كالأمـر بالمعـروف والنهى عن المنكر، والدعـوة إلى الله بالحكمة والموعظـة الحسـنـة، وغير ذلك.

فإذا قال الله تعالى لنا فى التعامل مع المرأة فى وقت النشوز ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِى ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ (النسـاء : الآيـة ٣٤) ـ فـلا يمكن أن نتعامـل بهذه الآليات الثلاث (العظة والهجر والضرب) إلا بفهم السـنن، سنن الموعظة وكيفيتها ومتى تكون حسنة ومتى تكون سيئة، وسنن الهجر ومدته الرادعة للمرأة وكيفيته على الوجه الأمثل الذى يؤتِى ثماره، وأخيرا سنن الضرب والكيفية التى شرع عليها.

معرفة سنن هذه الأمور يجعلنا نقف على الطريقة المثلى لاستعمالها.

هـذا من حيث عالم الأشـياء، وأما عـالم البشر فلا بد من معرفة سـنن المرأة على وجه العموم، وسنن زوجتك على وجه الخصوص وطبيعة شخصيتها، وأى هذه الأنواع من العلاج يكون أنفع لها؟ وعلى أى كيفية بالتحديد؟

بـدون هذا الفهم للسـنـن والقوانين لن نستطيـع أن نحـوِّل القـرآن إلى واقـع عملى حقيقى.

وكثيرٍ ممن يدّعون التدين والالتزام بالنصوص يسيء إلى القرآن بسـبب سـوء تطبيقه له، وما أتى سوء التطبيق إلا من سوء الفهم وقراءة القرآن بعيدا عن السنن.

لا شك أن هذه الآية وغيرها لعموم المسلمين، بل يحفظها أغلب الأزواج إن لم يكونوا جميعا، ويحاول كل واحد أن يستشهد بها إذا ضرب زوجته ولو كان ضربا مبرِّحا، ولكن فاتَهُم أن القرآن لا بد أن يُفهم بهذا التدبر والتأمل، أعنى بتدبر السنن والقوانين.

فاتَهم أنهم مكلفون أن يعرفوا كيفية التطبيق الصحيحة، فليس الأمر فى التطبيق متروكا لكل هوى، لذلك كان تدبُّر القرآن الكريم مهِماً لكل مسلم حتى يفهم القرآن، فمتى تنتهى فتنة اعتقاد أن القرآن للعلماء فحسب، وأنهم وحدهم هم من يتأملون فيه ويفهمونه؟!

على كل المسلمين أن يعلَموا أن القرآن هو حياتهم، وأن عليهم واجبا عظيما نحوه، وأنهم لن يقوموا بأمانة التكليف ـ مجرد التكليف ـ إلا بأن يعيشوا بهذا الكتاب ويَحيَوا به، ويشكِّل محور حياتهم، كما عاش به الصحابة رضى الله عنهم دون تفرقة بين عالمِ وغير عالم.

اهتمام القرآن بالنص على السنن:

القرآن قد اهتم بالسنن أيما اهتمام، وأعطانا من السنن الحضارية والخاصة بفقه البناء والهدم للأمم ما يكفينا فى حياتنا، وفى مسيرتنا فى هذه الحياة وواجبنا نحو العالم كله بعمران الدنيا والاستخلاف فى الأرض وتبليغ رسالتنا على أتم وجه ممكن.

لقد وردت لفظة «سنة» فى القرآن وهى لا تعنى أكثر من بيان منهج الله تعالى وطريقته فى التعامل مع الأمم.

اقرأ هذه الآيات لتعرف السنن الإلهية فى هذا العالم :

* يقول تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران: الآية ١٣٧).

* ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النساء : الآية ٢٦).

* ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الأنفال : الآية ٣٨).

* ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (الحجر: الآيات ١٠-١٣).

* ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (الإسراء: الآيات ٧٦-٧٧).

* ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ (الكهف: الآية ٥٥).

* ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (الأحزاب: الآية ٣٨).

* ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب: الآيات ٦٠-٦٢).

* ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: الآية ٤٣).
﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (غافر: الآيتان ٨٤-٨٥). ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا

﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الفتح: الآية الآيتان ٢٢-٢٣).

أما عن السنن التى أودعها الله تعالى فى كتابه دون أن يذكر معها لفظة سنة فهى أكثر عددا.

* يقول تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: الآية ٨١). هذا التذييل الذى ختمت به الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ يمثل سنة الله مع الباطل أنه يُذهبه ويدحضه، فربما فهم أحد من سياق الآية أن الله تعالى قد أزهق الباطل فى هذا الموقف الذى وردت فيه الآية مع نبينا ﷺ حين نصره الله تعالى بالحق وأزهق الباطل على يديه هو ومن معه من أهل الحق، فجاء آخر الآية ليبين أن هذه سنة الله مع الباطل، أنه دائما زهوق ولا يمكن له أن ينتصر أبدا لا فى هذه الموقف ولا فى غيره من ألوف المواقف، وما يبدو أحيانا من نصر له إنما هو انتفاشةُ عِهْنٍ وانتفاخةُ وَرَم لا قيمة له، وسرعان ما يكون هذا الورم سببا لهلاك صاحبه، فكلما زادَ الباطل فى طغْيانه فكأنه ورم يزداد على صاحبه مرضا، حتى يبلغ الورم النهاية، ولا يبقى أمامه إلا أن يَنفجر ليُهلك صاحبه.

اقرأ ـ مثلا ـ الآيات التى تبدأ بقوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ ...﴾ لتكتشف السنن والقوانين الإلهية:

* ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: الآية ١٤٣).

* ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ (آل عمران: الآية ١٧٩).

* ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال: الآية ٣٣).

* ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ (التوبة: الآية ١١٥).

* ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: الآية ١٥).

* ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم: الآية ٩).

سورة قصيرة مثل سورة العصر تستطيع أن تستنبط منها سننا، فقاعدة أن (الأصل فى الإنسان الخسران إلا القليل ممن استثناهم الله تعالى فى السورة) ـ هى قاعدة تمثل سنة فى هذه الحياة، والشروط التى ذكرتها السورة والتى يجب التحلى بها لكى ينجو الإنسان من هذا الخسر ـ تمثل سنة أيضا، وهى شرط الإيمان والعمل الصالح والتواصى بالحق والتواصى بالصبر.

إن السورة تتحدث عن سنن وقواعد نراها فى واقعنا كل يوم، بل كل ساعة، ومن لم يفهم القرآن حقا فلا يلومن إلا نفسه.

استمع بقلبك إلى بداية سورة الرحمن لتتعرف على السنن التى أقام الله عليها هذا الكون كله فى عالم الأشياء فى السماء والأرض وعالم الإنسان الذى يحيا بين السماء والأرض:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾. كون فسيح يسير بحساب ونظام وسنن قد أرساها الله فيه، وقد أنزل القرآن وعلم الإنسان البيان من أجل أن يحافظ على هذه السنن من خلال ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾.

إنها سنن العدل، العدل فى نظام الكون، فكل شىء فيه بحسبان وميزان، ولذا أنزل القرآن وعلم الإنسان من أجل أن يحافظ على ميزان العدل فى حياة البشر وفى اجتماعياتهم، فمن خالف هذه السنن الربانية حاق عليه ما حاق على الأمم السابقة من الوبال والهلاك.

وتأمل قصة موسى مع الخضر عليهما السلام، إنها ترسى سننا كثيرة فى اجتماعيات البشر، وفى علاقة المتعلم بمعلمه، والتابع بقائده، والصديق بصاحبه.

فموسى عليه السلام وهو فى مقام المتعلم والتابع قال :

﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف : الآية ٦٦) إنما يرسى بذلك سنة عظيمة، وهى أن الاتباع من أجل التعلم، فمن لم تتعلم منه لا يستحق أن تكون تابعا له، ومن لم يقُدْك إلى أن يعلمك شيئا فليس أهلا لأن تنقاد له.

وقول الخضر عليه السلام : ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ إنما يرسى سنة عدم الصبر على ما يُستنكر، مع عدم علمه بالحقيقة، فما سيراه موسى عليه السلام من أفعال يستنكرها لن يستطيع الصبر عليها أبدا، فالفطرة السليمة لا تسكت على مثل هذا، فالخضر محق فيما فعل؛ لأنه ما فعله عن أمره هو، بل كان عن أمر من الله تعالى، كما قال ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ وموسى عليه السلام ما أخطأ فيما استنكره وسأل عنه؛ لأنه إنما انطلق من سنة الفطرة السليمة التى تستنكر مثل هذه الفظائع، ولم يكن عنده من العلم بحقائقها ما يجعله يصبر، فكل منهما انطلق من سنة ومنهج.

فلما انطلقا نحو الاختبار الأول ـ اختبار صبر موسى الذى علِم الخضر مسبقًا أنه لن يصبر للسنة المذكورة ـ نسى موسى وخالف الشرط المأخوذ عليه وهو ألا يسأل عما يرى، ولذا ذكّره الخضر بها قال ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ ذكره بالسنة والطبيعة البشرية التى فطر الله الناس عليها، وأنه لن يستطيع أن يخالفها.

فقال له موسى عليه السلام : ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ ولماذا نسى موسى رغم الشرط والعهد والاتفاق، رغم أنه الشرط الوحيد ومن شأن الشرط الوحيد أنه لا يُنسى، رغم أنه قال ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ وانظر كيف قدم مشيئة الله تعالى فلم يكن نسيانه ـ إذن ـ عقوبة على ترك تقديم المشيئة، بل كان إعمالا لسنة الله تعالى فى خلقه التى لا تتبدل ولا تتحول أبدا.

إن قصة موسى مع الخضر عليهما السلام تُعدّ نموذجا لكل من يتحدى سنن الله تعالى فى الخلق، فمن راهن ضد الفطرة خسر رهانه لا محالة، ومن سار عكس فطرة الله وسننه فى الكون والبشر فهو الخاسر لا شك، والانتصار لن يكون إلا للسنن والقوانين الحاكمة على دنيا البشر.

ما نقصده إذن بالسنن:

بعد كل هذا نلخص الأمر فيما نقصده من السنن والقوانين الحاكمة فى نموذج (التحليل المنظومى والنموذج الحضارى) فى ثلاثة أمور :

١ - ما سماه الله تعالى فى كتابه سنة، وهذا من الممكن أن نسميه أمهات السنن فى القرآن الكريم، فبعد أن يذكر الله السنة يتبعها بالنص عليها أنه سنة الله.

كما سبق فى قوله تعالى ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الفتح : الآيتان ٢٢، ٢٣).

مهما كانت قوة الكافرين فإنهم لا بد أن يفروا أمام المؤمنين.

مهما كان معهم من سلاح نووى فإنهم يفرون ولا شك.

إنها سنة الله التى لا تتبدل أبدا.

أبعْد هذا البيان يبقى شك فى نصر الله تعالى؟ فقط على المسلمين أن يتحلَّوا بالإيمان وينصروا الله تعالى وسوف تهابهم الدنيا كلها.

٢- السنن التى ذكرها الله فى كتابه دون أن يعقب عليها بأنها سنة، لكنها تمثل عند التأمل والتدبر سننا وقواعد حاكمة لا يمكن مخالفتها، وقد ضربنا على ذلك أمثلة كثيرة كالسنن المفتتحة بقوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ ...﴾ وما ذكرناه من سنن فى افتتاح سورة الرحمن وفى قصة موسى مع الخضر عليهما السلام ـ فيه كفاية فى الأمثلة. وهذا القسم من السنن كثير فى القرآن، وهو ـ لا شك ـ أكبر بكثير من القسم الأول، وفيه نصيب كبير من القواعد الاجتماعية وتنظيم العلاقات بين البشر، وعلينا فقط أن نتدبر ونستخرج الكنوز.

٣- السنن التى تتعلق بالألفاظ القرآنية، وهذا القسم يحتاج منا إلى وقفة وفهم ودُرْبة فى التطبيق فى نموذج التدبر الذى معنا.

فهو لا يتعلق بالسنن والقواعد التى نص الله عليها، سواء أتْبعها الله بقوله ﴿ سُنَّةَ ﴾ كما فى القسم الأول، أو لم يُتْبعها كما فى القسم الثانى.

وإنما يتعلـق بألفاظ وأشـياء يذكرهـا الله تعالى فى كتابـه، وعلينا أن نتأمل فى سـننها وطبيعتهـا كى نفهم القرآن أولا، ولكى نحولـه إلى واقع عملى ثانيا، فلا يمكن أن نفهم ألفـاظ القـرآن الكريـم وتعاليمه إلا بفهم ما تحمله من سـنن وقوانين، فـإذا ذكر القرآن لفظة (إنسان) فعلينا أن نقرأ هذه الكلمة بما تحمله من سنن الإنسان وطبيعته.

وكما ذكرنا فى بداية هذا الفصل قوله تعالى ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾ فالآية لم تشـتمل على سـنن الموعظة والهجر والـضرب، وإنما علينا نحن أن نتأمل فى سنن هذه الأشياء المعنوية لكى نفهم المقصود بالآية، ونعرف كيفية التطبيق لها.

وحين يقسـم الله تعالى ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ ففى الآية الثانية سـنة منصـوص عليهـا ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ أما القسـم نفسـه ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ فليس سـنة منصوصـا عليها، ولكن يحتاج الأمر منا أن نتأمل سـنن العـصر والزمن حتى نفهم لماذا أقسم الله بالعصر، وما علاقته بقضية خسر الإنسان.

فالزمن له سنن لا تتبدل أبدا، وهذه السنن جزء من فهم الكلمة لا ينفك عنها أبدا.

فمن سـنن الزمن أنه لا يسـترد، فما فات منه لا يمكن اسـترجاعه.ومن سـننه أنه لا يعار، فلا يمكنك أن تستعير ساعة من أى شخص ولوكان أقرب الناس إليك.

ومن سننه أيضا أنه لا يخزن، فالساعة التى لا تجد عملا فيها اليوم لا يمكنك تخزينها إلى الغد أو إلى الشهر القادم لكى تنفعك هناك، هذا لا يمكن فعله أبدا.

وكأن القرآن يقول لنا : إن زمنا لا يسـترد، ولا يعار، ولا يخزن ـ لجدير بأن نقسـم به، وجدير بكم أن تغتنموه وتحرصوا عليه أشد من حرصكم على أموالكم.

فالزمن والوقت هو رأس المال الحقيقى لكل إنسان، وهذا يجعلنا نشعر بقيمة الوقت، كما سيأتى فى بيان وحدة القيم المقاصدية فى هذا النموذج.

إن القـرآن إذا فهـم بهذه الطريقة فى معرفة السـنن والقواعد فإنه يحـوّل حياة الأفراد والأمم إلى نهضة ونقله حضارية.

فاللهَ اللهَ فى كتاب الله يا مسلمون!

من لطائف السنن المستنبطة فى ورشات المعايشة:

١٠- من سورة النصر:

* ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ استنبطت ورشة كانت تتدبر هذه السورة سنتين فى هذه الآية :

الأولى : انتصار الحق على الباطل يجىء ولوبعد حين.

الثانية : الفتح دائما يأتى بعد النصر؛ لأن الناس تتبع الحق بعد النصر وتود أن تكون فى صف القوى.

* ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ استنبطوا :

أن الإنسان دائما يغتر ويفتخر بالنصر وينسى فضل المنعم عليه بهذا النصر، لذلك أمرت الآية بتسبيح الله تعالى وتعظيمه واستغفاره.

الأعمال بالخواتيم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

٢- من سورة القدر : ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ استنبطوا أن العقل البشرى مهما وصل علمه فلن يستطيع إدراك الأمور الغيبية، فليس من رأى كمن سمع، لذلك هولت الآية من أمر ليلة القدر لعدم رأيتنا للآيات التى تقع فيها.

كما استنبطوا من تمييز ليلة القدر على غيرها من الليالى وتخصيصها بشعائر وعبادات والاحتفال فيها بنزول الملائكة ـ هذه السنة :

(كسر الروتين أدعى للنشاط والتحفيز وشحذ الهمم والطاقات).

٣- من سورة الكوثر : وفى مجهود مشكور من ورشة أخرى استطاع أعضاؤها أن يستنبطوا من أقصر سور القرآن هذه السنن :

فمن الآية الأولى ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ :

* البشر يحبون الأخذ والعطاء والهدية.

* الحياة أخذ وعطاء.

* لكل مجتهد نصيب.

* هل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

ومن الآية الثانية ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ :

* الصلاة هى أحب الأعمال إلى الله.

* الإنسان دائما ينسى شكر الله فى السراء ويتذكره فى الضراء.

* الذى يربى ويراعى هو الذى يستحق الشكر.

* سياق النعمة يناسبها الربوبية.

* النعمة تأسر صاحبها.

* جواز أن يكون الشكر على العطاء بعضه مقدما وبعضه مؤخرا، لأن الصلاة معجلة والنحر يحتاج إلى وقت حتى يقوم به العبد.

ومن الآية الثالثة ﴿شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ :

* أعداء النجاح كثيرون.

* ميراث المال والأولاد أقل من ميراث العمل. (وورث سليمان داود)، (العلماء ورثة الأنبياء).

* الذكرعند العرب والناس بالنسب ولكن الذكر الحقيقى بالعمل الصالح.

وسواء اتفقت فى بعض هذه السنن أم اختلفت فى دلالة الآيات عليها، فإنك لن تختلف مع الورشة فى أنها سنن حقيقية وقواعد حيوية سواء كانت هذه السورة دليلا عليها ومجالا لاستنباطها أم كان استخراجها من آيات أخرى.

إن قراءة سورة بهذا الحجم فى عدد الكلمات والآيات ـ بهذه الطريقة يعتبر نقلة حضارية فى أسلوب تعاملنا مع القرآن الكريم، فهل يعقل الناس كتاب ربهم؟! إن

تدبر القرآن بهذه الطريقة يصحح المفاهيم، ويضع التصورات السليمة عن كل مفردات الحياة، ويشكل العقلية المسلمة وفق المنهج الرباني، ويجعل المسلم أكثر وعيا وفهما لكل ما يدور حوله من تصرفات وأفعال، يعرِّف البشر بقواعد التعامل والسنن الراسخة فى نفوسهم فلا يُصدَم إذا وَجد ما يسنكره لأنه قرأ فى كتاب الله تعالى ما يدل عليه، ولا يخدع عند التعامل لأنه قد أخذ من السنن والقواعد ما يحفظه من الغبن والغش، ولا يظن الدنيا كما يصورها الحالمون، بل يعتقدها كما بيَّنها رب العالمين.

***

الفصل الخامس

الوحدة الخامسة من النموذج
(الأحكام)
الخبرية ـ الإنشائية

وهذه مرحلة ربما تبدو ـ للوهلة الأولى ـ أنها تقليدية وليس فيها كبير ابتكار ولا تدبر، ولكنى وضعتها من أجل ربطها بقيمها المقاصدية كما سيأتى فى الوحدة التالية، وبعد فهمك لوحدة القيم المقاصدية ستعرف قيمة ربط الأحكام بالقيم.

ولسوف ترى فى وحدة الأحكام ما يسرك،لا سيما ما يتعلق بالحكم الخبرى.

كما أننا سنتدرب فيها على استنباط الرسائل والإشارات الربانية من خلال ما يأمرنا الله به وما يحكيه لنا من أخبار.

والمقصود بالحكم الخبرى هو أن تعرف بماذا أخبرك الله تعالى فى الآية، فإذا قال الله تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ (الأعراف : الآية ٥٩) فهذا حكم خبرى، بمعنى أن الله تعالى يخبرنا بأنه أرسل رسوله نوحا إلى قومه، وهى وإن كانت معلومة تبدو فى ظاهرها أمرا بسيطا إلا أن ربطها بالقيم المقاصدية سوف يبرز قيمة كل ما يخبرنا الله تعالى به.

والحكم الإنشائى هو الأوامر التى يريد الله تعالى منا أن نأتمر بها، والنواهى التى يريد أن ننتهى عنها.

فقوله تعالى ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ﴾ (البقرة : الآية ٢٨٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ (المائدة: الآية ١) . ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة : الآية ٢). ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾ (النور: آية٣٢). ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (الحديد : الآية ٢١). كلها أحكام إنشائية، يريد الله بها أن ننشئ أفعالا نمتثل بها هذه الأوامر.

وقوله تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ (الحجرات: الآية ١٢). ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ (النحل: الآية ١١٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ (المائدة : الآية ١٠١) كلها أحكام إنشائية يريد الله منا أن ننشئ تركا نمتثل به هذه النواهى.

ومعلوم أن الأمر الشرعى قد يفيد الوجوب أو الاستحباب أو الإباحة، وأن النهى قد يفيد التحريم أو الكراهة، وليس من شأننا فى هذا النموذج التعرض لمثل هذا، ولكن إذا كان المتدبرون من ذوى التخصص فلن يبعد عنهم معرفة الحكم الشرعى تحديدا.

ويكفى عموم المسلمين أن يعلموا أن الله يأمرهم بكذا وينهاهم عن كذا، وعليهم وفق هذا النموذج أن يبحثوا فى حكمة النهى والقيمة المقاصدية كما سيأتى فى الوحدة التالية، على أنه لا يعجزهم أن يطّلعوا على الحكم تفصيلا إن كان للوجوب والإلزام أم للاستحباب والحث، فكتب التفسير وأحكام القرآن مليئة ببيان ذلك.

وغالبا ما يكون الأمر القرآنى للوجوب، ويكون النهى للتحريم؛ لأن هذا هو الأصل فى الأمر والنهى على حد ما هو مقرر فى علم أصول الفقه، كما أن ذكر الأمر والنهى فى القرآن الكريم يعطيهما مكانة خاصة، ويجعل موضوع الأمر والنهى قضية قرآنية لها خصوصية، فأوامر القرآن لا سيما ما كُرر منها لها خصوصية فى البناء المعرفى لهذه الأمة، وفى الامتثال بها من قِبل المسلمين.

فقطعية النص فى ثبوته يعطى الأمر قوة لا نحتاج معها إلى البحث فى صحة النص من عدمه كماهو الحال فى نصوص الأحاديث الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم، فإذا انضاف إلى ذلك قطعية دلالة النص على المراد فإنه يعنى أن الحكم لا شك فى ثبوت دلالته، وهذا يزيده قوة على قوة.

مثال ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ (الحجرات: الآية ١٢) فالنص قطعى الثبوت عن الله تعالى كشأن القرآن كله، وكذلك قطعى فى الدلالة على النهى عن التجسس والغِيبة، فهذا يعنى أن تحريمهما قضية قرآنية، ومسألة

أَوْلاها القرآن أهمية بمجرد ذكرها فى كتابه ولم يتركها لنصوص السنة، وهذه الأهمية تبرز مدى الخطورة فى بناء المجتمعات والحفاظ عليها إذا لم نلتزم حكم الشرع فى هذا.

فالقرآن ـ لما له من خصوصية التلاوة وكثرة السماع والترديد ـ يريد أن يوصل لكل المسلمين أن التجسس والغيبة محرمان قد نهى الله عنهما فى كتابه، وجعل لهما الآية تتلى إلى قيام الساعة، يسمعها المسلمون فى كل زمان ومكان ؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد ذلك.

علينا إذن أن نهتم بالأحكام القرآنية، فالقرآن قد استوعب أصول الأحكام ورءوسها بما يشكل بناء معرفيا متكاملا، وما جاء فى سنة النبى ﷺ فهو ـ غالبا ـ إما تفصيلا لمجمل القرآن، أو تقييدا لمطْلَقه، أو تخصيصا لعمومه، ولا تكاد تنفرد السنة بحكم إلا وفى القرآن أصله أو الإشارة إليه.

أمر أخير يتعلق بالحكم الإنشائى فى القرآن الذى نقصده فى هذا النموذج، وهو أنه أعم من الأحكام التى اصطلح الفقهاء على تسميتها بالأحكام الفقهية التى تتعلق بالأمور العملية فقط، كأحكام العبادات والمعاملات وغيرهما.

أما الحكم الإنشائى فى القرآن بمفهومه العام يشمل هذا وغيره، فقوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (الأحزاب: الآية ٤٨) فيه ثلاثة أحكام إنشائية : (ولا تطع الكافرين والمنافقين ـ ودع أذاهم ـ وتوكل على الله) ولا علاقة لهذه الأحكام بالفقه الإسلامى.

وقفة أمام الحكم الخبرى :

هذا عن الحكم الإنشائى، أما عن الحكم الخبرى فهنا ملاحظة أود التنبيه عليها ونحن نتدبر القرآن، فإننا لا نعنى بالحكم الخبرى فى هذا النموذج مجرد المعلومة فى ظاهرها التى يخبرنا الله بها، وإنما لا بد من فهم ما يمكن أن نسميه بالرسالة الربانية من وراء هذا الخبر، وأن نفهم ما بين السطور، والقرآن كله رسائل من الله تعالى لنا، على مستوى الجمل والآيات، وعلى مستوى السورة كلها. فالحكم الخبرى لا يقتصر على أن نعرف ما أخبرنا الله به من معلومات، وإنما أيضا يشمل ما وراء هذا الخبر.

سألتنى إحدى المتدربات فى كورس المعايشة عن الأحكام الخبرية فى القصص القرآنى ما هى؟

فأجبت أن القرآن لا يحكى قصة - مجرد حكاية - بل قَصص القرآن ملىء بالأحكام الخبرية التى تكون وراء الحكاية، بل قد تكون أحكاما إنشائية تستفاد من القصة.

فسورة يوسف مثلا وما حكاه الله عن الحسد الذى كان من إخوته وكيدهم له - لا ينبغى أن يمر علينا دون أن نفهم الرسائل الربانية منها، فالحكم الخبرى هنا حكاية قصة تحاسد وأحقاد وغيرة بين الإخوة لا سيما إذا كانوا من أمهات مختلفة.

والحكم الإنشائى أنه على الآباء أن يراعوا هذا فى تصرفاتهم ولا يرتكبوا من الأخطاء فى التمييز ما يمكن أن يثير النفوس بين الإخوة، وأن يكونوا من الحذر بحيث لا يفهم من تصرفاتهم أنهم يحبون بعضهم أكثر من بعض.

وقوله تعالى فى نفس السورة حكايةً عن أخيهم الأكبر ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾ ليس الحكم الخبرى هنا مجرد أن الله تعالى يريد أن يخبرنا بما قاله أخوهم الأكبر لمّا فقدوا أخاهم الذى احتجزه يوسف عليه السلام عنده.

وإنما يفهم من الآية أيضا أن الله أخبرنا عن حياء الأخ الأكبر من مواجهة أبيه بعد ما حدث منهم من تضييع أخيهم يوسف، وها هو الثانى قد ضاع أيضا ورغم عدم ذنبهم فى تضييع الثانى إلا أن المواجهة صعبة أيضا كما يفهم من كلام أخيهم الأكبر، وهذا قد يفيد حكما إنشائيا أيضا، وهو أن أتّبع نفس النهج مع من أخطأت فى حقه بالإيذاء، ثم حصل هذا الإيذاء مرة أخرى من جهتى ولكن بدون ذنب منى، فحينئذ عليّ أن أفهم أن مجرد الاعتذار لا يكفى، بل لا بد من أن أسلك فعلا آخر مستغربا كهذا الذى سلكه أخوهم الأكبر حتى يرضى عنى من أخطأت فى حقه، كأن أرسل له رسالة بأنى لا ذنب لى بما حدث وأنى أستحيى من لقائه، ولن ألقاه حتى يسامحنى أو تثبت براءتى عنده، وله أن يتحرى عن براءتى بما يرضيه من طرق حتى يعلم أنه لا ذنب لى، فربما يشفع ذلك لى عنده.

وقوله تعالى حكاية عن كلام يوسف عليه السلام ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يفهم منه تذكُّر نعمة الله تعالى عند الفرحة والنصر، وأن الفضل منسوب إلى الله وحده، وليس مجرد الإخبار بأنه دعا بهذا الدعاء فى هذا الموقف.

ويمكن أن يكون من ذلك أيضا ما روا البخارى : عَن ابْنِ عَبَّاس،قَالَ: كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخ بَدْر فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِى نَفْسِه، فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْم فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِى يَوْمَئِذ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ (النصر : الآية ١)؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا، وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِى: أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاس؟ فَقُلْتُ: لا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ لَهُ، قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ وَذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ،» ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾، فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ[١٨].

فتأمل كيف فهم عموم الصحابة رضى الله عنهم السورة على ظاهرها، وأنها مجرد حكم خبرى يخبرنا الله تعالى بمجىء نصره وفتحه، ثم يأمرنا بحكم إنشائى وهو أن نسبح بحمد الله تعالى ونستغفره.

أما الفقيهان المتدبران عمر وابن عباس رضى الله عنهم فقد فهما الإشارة والرسالة الربانية إلى نبيه صلى الله عليه وسلم، وهى نعيه وإعلامه بدنو أجله؛ لأنه ما بعد التمام إلا النقصان، فإذا جاء النصر والفتح ودخل الناس فى دين الله تعالى جماعات وأفواجا فقد أديت رسالتك، وتمت دعوتك، فلا حاجة لك فى بقائك فى الدنيا فمقامك عندنا خير لك، فابدأ فى الاستعداد لهذا اللقاء بالحمد والاستغفار، فمقام النبى ﷺ لا يليق به

١٨- البخارى : التفسير - باب قوله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ (٨/ ٦٠٦- ق ٤٩٧٠).

أن يبقى فى هذه الدنيا إلا لمسوِّغ الدعوة إلى الله، والدعوة قد أتمها الله تعالى وأكمل الدين على يديه، فلماذا المكث فى هذه الحياة وهى غير لائقة به ؟! إذن الحكم الخبرى ليس مجرد أن تفهم المعلومة على ظاهرها، بل أن تفهم الرسالة من ورائها، وعلماء التفسير وعلوم القرآن يسمون هذا النوع من التدبر : التفسير الإشارى[19].

وهذا المجال ـ كما أرى ـ ما زال غضا يحتاج إلى مزيد من البحث وإعمال العقل، وهو أقرب إلى التدبر منه إلى التفسير بمعناه التقليدى.

إن كل ما حكاه القرآن فيه عِبر وحِكم ورسائل تنمّى سلوك المسلم وتهذب أخلاقه وتبنى عقله وفكره، وعلينا فقط أن نتدبر فى كل ما أخبرنا الله تعالى به وحكاه لنا.

إذن خلاصة الأمر تتعلق بمسألتين :

الأولى : أن الحكم الخبرى ليس مجرد معلومة يخبرنا الله بها، وإنما يجب أن نفهم ما بين السطور وما وراء الخبر على النحو الذى بيناه.

الثانية : أن الحكم الخبرى يختلط بالإنشائى، فالله يخبرنا بخبر له هدف ورسالة، ويريدنا ان نتحلى بهذا وأن نأخذ منه العبرة، وهذا فى حد ذاته يمكن أن نجعله حكما إنشائيا.

* * *

١٩- وهو ممدوح بهذا المعنى الذى سقناه مما لا يتنافى مع ظاهر عبارة القرآن، أما التفسير الإشارى السخيف الذى يخرج عن ظاهر القرآن ولا يحتمله لفظه فهو مرفوض، كتفسير البقرة فى قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ « (البقرة: الآية ٦٧) بأنها النفس البهيمية أو الحيوانية. راجع فى ذلك على سبيل المثال «مناهل العرفان فى علوم القرآن» للزرقانى (٢/ ٧٨ـ وما بعدها) دار إحياء الكتب العربية.

الفصــل السـادس

الوحدة السادسة من النموذج
(القيم المقاصدية)
الجزئية – الكلية

لقد كان فهم الأحكام بعيدا عن قيمها المقاصدية له أكبر الأثر فى تشويش الإسلام فى الأذهان، وبُعد الناس عن الفهم الصحيح لهذا الدين القيّم.

صرنا نفهم الفقه والأحكام على أنه مجرد أفعال وأقوال ظاهرة خالية من أى قيمة أو أى مقصد.

إن كتب الفقه تعرض الأحكام مجردة من المقاصد والغايات والحِكم والأهداف التى تريدها الشريعة من وراء تشريع الحكم، هذا فى الأعم الأغلب، وهو ما تربينا عليه وألِفناه فى كتب الفقه الإسلامى.

نريد العودة إلى طريقة القرآن فى عرض الأحكام، الطريقة التى تعرض الحكم والأمر الإلهى أو النهى محاطا بالقيم والأخلاق وبيان المقصد والهدف.

سورة الطلاق والتدبر المقاصدى فيها :

انظر إلى قوله تعالى فى مطلع السورة ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ سُبق بنداء النبى ﷺ ليعطيه قيمة عالية ومكانة خاصة عند الأمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ وجاء بعده ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ لحث الناس على تقواه ومراقبته فى الامتثال بهذا الحكم العظيم، والسورة كلها مليئة بالأمر بتقوى الله تعالى لنفس المقصد ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾.

ثـم يأتـى حكـم آخـر ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ﴾ ثـم يعقبـه حديث عن القيـم والمقاصـد ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

ثم يأتى حكم آخر ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ويعقبه بيان مقاصدى وقيمى عظيم ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾.

ثـم تعود السـورة إلى بيان بعض أحـكام عِدة المطلقـة ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ﴾ وتعقـب ذلك بـكلام مقاصدى قيمى عظيم ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾.

ثـم عـوْد إلى الأحكام مرة أخـرى ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ﴾ ثم يأتى سياج المقاصد والتذكير بالقيم والأخلاق الذى يحيط السـورة كلها ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ﴾ ثـم بيان حكم آخـر ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ ثم تأتى هذه الآية التى تختلط فيها الأحكام بالمقاصد بشـكل عجيب ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ ثـم تأتـى آيـات الختام لتبيـن المقصود من هـذه الأحكام وهو حفـظ المجتمعات بحفـظ الحقـوق، وأن مـن خالفها فقـد عتا عن أمر ربـه وظلم، وأن الوقـوف أمام هذه الأحكام بالعصيان والمخالفة يجلب غضب الله تعالى وسـخطه ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ

أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ **وكلها آيات لا يمكن فصلها عن أحكام الطلاق.**

إن عرض الأحكام الطلاق بهذه الصورة التى وضعتها سورة الطلاق لجدير بالعناية، وأقرب إلى فهم طبيعة هذه الأحكام ومكانتها عند الله تعالى، وأدعى إلى أن يلتزم بها المسلمون ليحققوا بها التقوى.

وانظر ـ فى نفس الموضوع ـ إلى بيان أحكام الطلاق فى سورة البقرة والتأكيد على لفظ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ فى ثنايا الحديث عن أحكام الطلاق وما له من وقع وهيبة فى نفس المسلم، مع التأكيد على القيم الأخرى، وسوف نعرض للآيات فقط واضعين لك خطوطا تحت العبارات التى تتحدث عن القيم وتشكل سياجا لهذه الأحكام، تاركين لك التدبر والتأمل :

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ

بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: الآيات ٢٢٨-٢٣٢).

فانظر إلى حجم الألفاظ والعبارت المقاصدية التى تجاوزت فى كمها الألفاظ التى اشتملت على أحكام.

لباس المسلمة ورؤية القرآن المقاصدية:

لباس المرأة المسلمة له أحكامه فى القرآن والسنة، وفهمه من مدخل مقاصدى يقينا كثيرا من الأخطاء والتصورات المغلوطة التى رسخت فى الأذهان على أنها من الدين، فلم يعد الحديث عن حكم النقاب هو ما يفيد الأمة ويمنع الفتنة فيها، فالمسألة خلافية وقد أخذت أكبر من حجمها رغم أنها ليست قضية قرآنية.

لقد عرض القرآن لقضية لباس المسلمة فى آيتين، فقال تعالى ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: الآية ٣١).

وقال جل شأنه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب: الآية ٥٩).

ففـى الأولى اسـتثنى من النهى عن إبداء الزينـة ﴿مَا ظَهَـرَ مِنۡهَا﴾ وفى الثانية بيّن أن مقصـد إدناء الجلابيب هو ﴿أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ أى يعرفن بالعفة والنقاء فلا يتعرض لهن أحد.

استثنى الله مـا ظهر منها وتـرك الآية هكذا دون تحديد للمقصـود بما ظهر منها، لأن أمـر لباس المسـلمة من أمور العادات، والمسـلمة تختلـط فى الحياة بملبسـها، وقد جعل الـشرع عورتها أكثر مسـاحة من عـورة الرجل، وجعل أمرها مبنيا على السـتر أكثر منه لما للمرأة مـن جمال واسـتثارة لغريـزة الرجل أكثر، ولكـن فى الوقت نفسـه هى تحتاج للخروج والاختـلاط بالمجتمع، وهذا يختلف من امرأة لأخرى، فالمرأة العاملة بخلاف غيرهـا، والكبيرة بخلاف الصغيرة، والجميلة بخلاف العادية، وصاحبة الجسـم والهيئة بخلاف غيرها، فترك تحديد الاسـتثناء أولى مـن النص عليه، فيترك للمرأة أن تبدى من زينتهـا ما يتفق مع طبيعتهـا وظروف خروجها على ألا تتجاوز الحـد الذى اتفق العلماء على أنه عورة، فيجوز أن تبدى وجهها فقط، أو كفيها فقط، أو الوجه والكفين، أو تزيد القدمـين على مـا ذهب إليه أبو حنيفة رحمـه الله فى اعتبار القدمين ليسـا من العورة، كل ذلك فى سياق تحقيق مقصد ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ فإذا ما تحول ملبس المسلمة ـ ولـو كانـت منتقبة ـ إلى مثـار للفتنة فاعلـم أن الحكم الشرعى الـذى أراده الله تعالى لم ينفـذ، وأن هناك خللا فى الفهم، فتجد المرأةَ رغم انتقابها محط أنظار الناس وإيذائهم لها وهى تسير فى الطريق بسبب طريقة لبسها للنقاب، فأين إذن قوله تعالى ﴿فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾.

ولا يعنـى هـذا أنها لن تؤذى أبدا ولو كان لباسـها محترما ؛ لأن كثيرا من الفسـاق لا يتورعون عن إيذاء العفيفات، ولكن المقصود ألا يكون الإيذاء بسببها هى.

وبعـض المنتقبـات لو خلعت النقاب لكان خيرا لها وأقـرب إلى ربها، لأنها لن تكون مثار فتنة إذا رأى الناس وجهها، أما أن تستر وجهها غير الجميل وتلبس عباءتها الضيقة بطريقـة تثير فتنة الناس ونظر الناس فقد أتت إثما عظيما، وما عرفت معنى السـتر الذى أراده الله تعالى.

أعتقد أن فهم ملبس المسـلمة عـلى الطريقة القرآنية التى تـوازن بين الحكم والمقصد وتراعـى الظـروف والملابسـات لـكل امـرأة ـ يخفف من حـدة الخلاف فى هذه المسـألة ويجعلها أقرب إلى مراد الله تعالى.

ومثل هذا أيضا الإبهام الذى ذكره الله تعالى فى القواعد من النساء ﴿ وَٱلْقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (النور: الآية ٦٠).

فأى ثياب يوضع؟ وعن أى جزء من الجسد يوضع؟ إنه إبهام قرآنى بديع، متروك لكل امرأة من القواعد أن تضع من ثيابها ما يخفف عنها مشقة الحجاب والتستر لبلوغها سن ﴿ٱلَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ ولما كان المقصد من الحجاب منع الفتنة أو الحد منها تخفف الشرع مع هذا النوع من النساء لعدم رغبتهن فى الرجال وعدم رغبة الرجال فيهن، ولكنه قيد الأمر بحيث لا تبالغ المرأة من القواعد فى أمر وضع الثياب عنها فقال ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ ﴾.

والخلاصة أن إبهام الاستثناء فى قوله ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وإبهام الثياب الموضوع عن القواعد ـ جاء ليحقق المقصد من الستر مع مراعاة الظروف والاحتياجات فى سياج من العفة والنقاء للمرأة المسلمة وبُعدها عن الإيذاء.

شيوع الفكر المقاصدى فى القرآن كله :

لا تكاد تخلو الآية من ربطها بالمقاصد الشرعية والحِكم الربانية، والغايات والأخلاق السامية.

وبعد تجربتى مع مقاصد القرآن طبقا لاستخدام هذا النموذج أقول : القرآن إما أن يتحدث عن مقاصد، وإما عن أحكام بمقاصدها.

ففى الطهارة تجد قوله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ

عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (المائدة: الآيتان ٦، ٧).

فالآية تتحدث عن الوضوء ﴿ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ ﴾ والغسل ﴿ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ ﴾ ثم بيّنت حكم التيمم عند فقد الماء لهما، ثم بينت غاية الطهارة ومقصدها ﴿ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ وأن الشرع خفف عليكم بالتيمم ولم يكلفكم استعمال الماء فى كل وقت لفقده أحيانا أو للعَوَز إليه أو صعوبة استعماله لمرض وغيره ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ ﴾ ثم ربط ذلك كله فى الآية التالية بميثاق الله الذى واثقنا به حين قلنا ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا ﴾ وأخذنا على أنفسنا العهد بالتزام أوامر الله، ذلك كله ليُعْلى من قيمة الطهارة فى هذا الدين الحنيف، وأن الطهارة جزء من هذا الميثاق ومظهر من الالتزام به.

وفى الصلاة يقول تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ (العنكبوت: الآية ٤٥) فإذا لم تنهنا صلاتنا عن الفحشاء والمنكر ولم نحقق هذا المقصد منها فإننا حينئذ لم نصل كما أراد الله لنا، ولم نحقق المقصد الشرعى من الصلاة، أما إذا صلينا كما ينبغى بإقامة خشوع الصلاة فإن الفحشاء والمنكر سيكونان أبعد شىء عنا ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴾ (المؤمنون: الآيتان ١، ٢).

وفى الزكاة يقول تعالى موضحا القيمة المقاصدية منها ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة : الآية ١٠٣).

وفى الصيام يبين تعالى أن المقصد منه هو تحقيق التقوى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة : الآية ١٨٣).

وفى الحج يقول المولى جل شأنه : ﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ

خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟
فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ
ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ
أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا
قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم
مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ
مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (البقرة: الآيات ١٩٧-٢٠٣).

وفى البيوع والمعاملات المالية يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ
كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ
شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ
بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن
تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا
مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ
لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟
فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞
وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى
ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: الآيتان ٢٨٢-٢٨٣).

ويقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (النساء: الآيتان ٢٩، ٣٠).

إن القيم المقاصدية تتخلل آيات القرآن كله لدرجة أنك لا تستطيع أن تفصل بين الحكم والقيمة فى ألفاظ الآية الكريمة، فالحكم يساق بقيمته أو تعقبه القيمة مباشرة.

بل أحيانا تسبق القيمة وبيان العلة والهدف الحكمَ نفسه، كما قال تعالى مبينا قيمة تحريم الجماع فى المحيض قبل أن يذكر الأمر باعتزال النساء فيه : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة: الآية ٢٢٢) .

ثم تأمل ما جاء بعد الأمر بالاعتزال من التركيز على ألفاظ الطهارة ﴿يَطْهُرْنَ ـ تَطَهَّرْنَ ـ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ليعلى من هذه القيمة فى هذا السياق، كما ذكر ﴿التَّوَّابِينَ ﴾ فى أثناء ذلك للحث على الرجوع إلى الله تعالى إذا حدث خطأ فى عدم الالتزام بالحكم.

هذا هو القرآن بمنهجيته المقاصدية التى يرسيها للمسلمين، ومن لم يقرأ أحكام القرآن بدون هذه المنهجية القيمية فى بيان المقاصد كانت الأحكام عنده مجرد تعاليم مجردة، ومظاهر فارغة عن قيمها، وأشكال لا يحس معها المسلم بطعم الإيمان ولا بقيمة الأحكام وأهدافها.

إن الله تعالى يحترم عقولنا، ولذلك خاطبها بهذه المنهجية المقاصدية، فإذا قضى أمرا أو نهيا فإنه يبين قيمة الحكم، والمقصد من تشريعه، والفلاح المنبنى عليه فى الدنيا والآخرة، ويركز على القيم التى يجب أن تحوطه وتدفع إلى تنفيذه، كل ذلك فى سياق قرآنى عجيب لا مثيل له، حتى يتعلم الناس هذه المنهجية فى إصدار أوامرهم إلى من يقودونهم، فالتربية والإدارة والقيادة والسياسة ليست مجرد أن يصدر الرجل الأوامر التى لا يُفهم معناها، ولا يدرى الناس: ما المقصد من ورائها؟ وأين المصلحة التى تحققها؟

فإذا كان رب العالمين ـ الذى لا يسأل عما يفعل ونحن عبيده ـ قد أخذ على نفسه هذه المنهجيـة فى بيان القيم والمقاصد والثواب والعقاب ـ فكيف بغيره ممن يبغون أن يطاعوا دون أدنى مناقشة ولا سؤال عن الهدف والمقصد من وراء الأوامر والأحكام.

ما أحوجنا إلى أن نعرض أحكام الشريعة للناس بهذه المنهجية، سـواء على مسـتوى التعليم الشـفوى فى قاعات الدرس، أو على مسـتوى الكتابة، وقد فقد الفقه الإسلامى فى أغلبه هذه الميزة العظيمة، وجزى الله فقهاءنا خيرا عما بذلوه وأنتجوه من تراث فقهى عظيـم سـدوا به ثلمة كبيرة، ولكـن لكل جواد كبوة، والنقص مـن صفات البشر دائما، وتبقى ثلمة المقاصد فى عرض الفقه تحتاج إلى مزيد جهد.

شـىء أخير وهو أن القيم المقاصدية لا ترتبط بالأحكام الإنشائية فقط كما عرضنا له فى الأمثلة السـابقة، بـل تكون فى الأحكام الخبرية أيضا، فالقـرآن حين يخبرنا بخبر فإنما لعلة وحكمة وقيمة يريدها، وحين يحكى لنا قصة فلمقصد يبغيه منا.

تأمـل قوله تعـالى ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (هود: الآية ٤٩).

﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونـس : الآية ١٠٣).

طـرق أخـرى لمعرفـة القيمـة المقاصديـة :

مـا سـبق يتعلـق بالنص عـلى القيم أثنـاء الحديث عن الأحـكام، وقد تسـتفاد القيم المقاصدية بطرق أخرى، منها القسم، وقد أكثر الله تعالى فى كتابه من القسم بالأشياء لا سيما فى بدايات السور.

ولا شك أن قسم الله تعالى بالشيء يعطيه قيمة عظيمة، فإذا أقسم الله تعالى بالمواقيت والأزمنـة المختلفـة ـ كالعـصر والفجر والليـل والنهار والضحى ـ فهـذا يعطى للوقت قيمة ومكانة عند الله تعالى، وعلى المسلمين أن يعطوه نفس القيمة وأن يستثمروا أوقاتهم فى الخير.

وقد تستفاد القيمة من تكرار الشيء فى القرآن، فالقضايا المكررة فى كتاب الله تعالى لها من القيم المقاصدية ما يستدعى المسلم للتأمل والتدبر.

فلا ينبغى أن نحصر أنفسنا على المقاصد التى نص عليها القرآن، بل نطلق لأنفسنا العنان فى استخراج المقاصد بكل السبل، وسوف نجد العلم الكثير فى هذا الباب.

المقاصد الجزئية والكلية:

المقصود بالمقاصد الجزئية تلك التى تتعلق بحكم معين، أو بباب معين يمثل مجموعة من الأحكام المتشابهة، كباب الوضوء أو الصلاة أو الصيام أو البيوع... الخ.

وذلك كمقصد الخشوع فى الصلاة ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ (المؤمنون: الآيتان ١، ٢) وفيما ذكرناه من أمثلة سابقة كثيرة ما يكفى، فكلها مقاصد مرتبطة ببعض الأحكام أو ببعض الأبواب.

ولا يقلل من قيمة المقصد أنه جزئى، فالجزئية هنا لا تعنى أكثر من ارتباطه بباب معين أو بحكم معين كالوضوء والصلاة وغيرهما، فلا شك أن الخشوع فى الصلاة مقصد عظيم وقيمة كبيرة، والحكم بأنه مقصد جزئى ذلك لأنه مرتبط بالصلاة لما لها من خصيصة الإقبال على الله تعالى الذى يزيد إيمان العبد فينتهى بهذا الخشوع عن الفحشاء والمنكر.

أما المقاصد الكلية فهى القيم العامة التى أرساها الإسلام، ولا تتعلق بحكم معين، بل تسرى فى جميع الأحكام وتصلح أن تكون لجميع البشر، فقيم العدل والمساواة وحقوق الإنسان هى مقاصد كلية. ومعلوم أن الفقهاء والأصوليين قد نصوا على مقاصد كلية خمسة، وهى حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، والصواب الذى استقر عليه الأمر والاجتهاد أن المقاصد الكلية لا تقتصر على هذه الخمسة.

وقد ترد المقاصد الكلية فى القرآن فى سياق حكم جزئى لتعليل هذا الحكم، فموردها فى معرض الحديث عن حكم جزئى لا يجعلها جزئية، وإنما وردت فقط فى هذا الموضع من باب الاستدلال بالقاعدة الكلية او العامة على الحكم الجزئى.

مثال ذلك ما سبق فى الآية الوضوء والتيمم ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (المائدة: الآية ٦) فرفع الحرج وإزالة الضرر من المقاصد الكلية التى تسرى فى جميع الأحكام الشرعية، ولا يقتصر الأمر على الطهارة.

ومثله ما ورد فى آيات الصيام ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ (البقرة: الآية ١٨٥).

فالتيسير وإن ورد فى الصيام إلا أنه مقصد عام كلى من مقاصد الشريعة الإسلامية الغراء.

ودورنا فى التدبر واستعمال نموذج التحليل المنظومى أن نتأمل أحكام الله تعالى فى الآية الكريمة التى نتدبرها بقيمها المقاصدية، وأن نفهم مراد الله من أحكامه، وما الغايات والأهداف التى تحققها الأحكام الخبرية والإنشائية.

وإذا اختلط علينا نوع القيمة المقاصدية (جزئية أم كلية) فلا يُهِمّ، فليس هذا النموذج للتصنيف الأصولى والفقهى، وإنما هو لفهم مراد الله تعالى والتعايش مع القرآن الكريم، والوصول إلى أعلى مستوى من التفاعل مع الآية الكريمة من الفهم والاستشعار والإيمان.

وقد أكثرنا من النماذجوالأمثلة هنا للاستدلال على أن كل القرآن قيم ومقاصد وأهداف وغايات، وربط الأحكام بالنتائج والثمرات والعللِ والغايات.حتى الأحكام التى لا نعرف وجه التعليل فيها على وجه التحديد والتى اصطلح على تسميتها بالتعبدية ـ فإن الله تعالى يربطها أيضا ببعض المقاصد والغايات لتكون أقرب إلى القبول وأدعى إلى العمل والالتزام بها، فالصلاة وهى حكم تعبدى فى هيئتها وأركانها وشروطها يربطها الله ببيان الفائدة منها والغاية ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾.

وعلى هذا فقس، وقد مر من الأمثلة ما فيه الكفاية.

المهم الآن هو أن تبدأ قراءة القرآن بهذه النظرة القيمية المقاصدية.

***

الفصل السابع

الوحدة السابعة من النموذج
(الإجراءات والمهارات)
الحافظة - الدافعة

تأتى هذه الوحدة لتمثل الإجراءات العملية التى ينبغى أو يجب أن يتخذها المسلم نحو الآية الكريمة.

فبعد كل ما سبق يخرج المتدبر بفهم عميق للآية الكريمة، يفهم من خلالها الإيحاءات والعلاقات والسنن والأحكام بقيمها المقاصدية، ثم ماذا بعد هذا كله؟

على المسلم بعد كل مراحل الفهم السابقة أن يحول القرآن إلى واقع عملى بما يتفق مع الفهم التدبرى للآية الكريمة، وبحسب طاقات المتدبر وإمكاناته، فيبدأ بوضع مجموعة من الإجراءات المحددة ليقوم بتنفيذها.

إن الغاية من القرآن الكريم بعد فهمه على الوجه الأمثل هو أن نحوّله إلى واقع عملى نسير به فى حياتنا، ونؤسس به لمجتمع مسلم يقود هذه الدنيا بالخير وإلى الخير.

ما أعظم ما قالته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ: «**كان خلقه القرآن**»[٢٠].

إن القرآن الكريم ما نزل إلا لكى يُعمل به، وما جعلت تلاوته إلا لفهم ما ينبغى أن نقوم به، فالعلم يهتف بالعمل، فأجابه وإلا ارتحل.

قال القرطبى : «ذكر أبو عمر والدانى فى كتاب البيان له بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبىّ : أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل جميعا[٢١]. وذكر عبد الرزاق عن

٢٠- سبق تخريجه (ص/ ٨).

٢١- انظر مسندأحمد (٣٨/ ٤٦٦ ـق ٢٣٤٨٢) وحسن محقق والمسند أحد أسانيده، فليراجَع تفصيل تخريجه.

معمر عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن السلمى قال : كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التى بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها. وفى موطأ مالك أنه بلغه أن عبد الله ابن عمرمكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها. وذكر أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الحافظ فى كتابه المسمى (أسماء من رويعن مالك) عن مرداس بن محمد أبى بلال الأشعرى قال حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر قال : تعلم عمر البقرة فى اثنتى عشرة سنة فلما ختمها نحر جزورا. وذكر أبو بكر الأنبارى حدثنى محمد بن شهريار حدثنا حسين بن الأسود حدثنا عبيد الله بن موسى عن زياد بن أبى مسلم أبى عمرو عن زياد ابن مخراق قال قال عبد الله بن مسعود : إن اصعب علينا حفظ ألفاظ القرآن وسهل علينا العمل به، وإن من بعدَنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العملبه»[٢٢].

ولا شك أن حظ كل إنسان من العمل يختلف عن غيره، فكل بحسبه فى طاقته ووقته وإقباله على نوع منالعمل الصالح أكثر من غيره.

ولذا على المتدبرين للقرآن حين يتدبرون وفق هذا النموذج أن يضعوا من الإجراءات العملية ما يجعلهم ممن يعملون بالقرآن الكريم، مراعين معيار القليل الدائم، فهو خير من الكثير المنقطع.

فحين نتدبر الآيات التى تحث على قيام الليل والاستغفار بالأسحار كقوله تعالى ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الذاريات: الآيتان ١٧، ١٨) ـ فعلينا أن نضع مجموعة من الإجراءات التى نتخذها بشكل فعلى وجاد لكى نكون من هؤلاء، مثلا نضع إجراء كالتالى :

ثلث ساعة يوميا، نصلى فيهما ركعتين نقوم فى كل ركعة بعشر آيات، ونستغفر الله تعالى فى سجودنا ونتوب إليه عشر مرات، ثم نوتر بركعة.

فهذا الإجراء هوتطبيق عملى للآية الكريمة، وقد يختلف فى مدته وكمه حسب طاقة كل إنسان كما قلنا، المهم ألا يكلف المرء نفسه أكثر مما يطيق، وأن تكون المداومة قصده، وأن يكون الكيف مقدما على الكم.

٢٢- مقدمة تفسير القرطبى (١/ ٥٦-٥٧).

بمثل هـذه الإجراءات يصبح القرآن الكريم واقعا عمليـا فى حياتنا، فلو تدبرنا كل يـوم أو ثلاثـة أيام الآية واحدة بهـذه الطريقة وعملنا بها صار القـرآن حقا منهجا لحياتنا كمـــا أراد الله تعالى لنا.

وهذا على سـبيل المثال، ويمكن قياسـا عليه وضع إجراءات أخرى خاصة بالنوم فى موعد معين وضبط (المنبه) أو التنسـيق مع أخ لك يوقظك بالهاتف، أو ما شـابه ذلك من إجراءات تعين على قيام الليل.

التحديـد الدقيـق للإجــراء :

فى العلوم الإدارية يتحدثون عن معايير وضع الهدف، وهى خمسة:

١ - أن تكون محددة ومضبوطة بكم معين أو رقم أو نسبة.

٢ - أن تكـون قابلـة للقيـاس، يمكـن تقييمهـا ومعرفـة نسـبة المحقـق منهـا بالمقارنـة بالمخطط.

٣- أن تكون محددة ببرنامج زمنى معين، يعنى لها وقت بداية ونهاية.

٤ - أن يكون الهدف واقعيا قابلا للقيام به، فلا يكون مستحيلا.

٥- أن يصب فى رؤية الإنسان، ويخدم رسالته الكبرى.

إذا اسـتطعنـــا أن نحوّل القـــرآن إلى إجراءات وفق هذه المعايير نكون قد أحسـنّا إلى أنفسنا وأمتنا.

لقد كثـرت الخطـب والمواعـظ، والكلام المطـاط البعيـد كل البعد عن الإجـراءات، فتجـــد الأمـر بالتقوى والحث عـلى الخير والحض عـلى طاعة الله تعالى كثـيرا، كل هذا نحسِن أن نقوله، ولكن يبقى السؤال : ماذا أعمل؟ ما الذى عليّ فعله حتى أكون مطيعا ومتقيا؟

فإذا ما تحول هذا الكلام إلى إجراءات محددة كان أقرب إلى العمل.

فيمكن وضع إجراء يتعلق بقيام الليل كما سبق، ويمكن وضع إجراء يتعلق بالصدقة كالتالى : أقوم بالتصدق يوميا بثلاثة جنيهات حين أخرج من بيتى وأنا فى طريقى للعمل على أى عامل نظافة فى الشارع أو أى إنسان أراه مستحقا للصدقة.

وفى مجال الصوم يمكن أن يكون الهدف كالتالى : أصوم كل شهر ثلاثة أيام (ولتكن الأيام القمرية).

وفى مجال القراءة والتعلم تطبيقا لقوله تعالى ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أقوم بقراءة ثلاث صفحات يوميا بعد صلاة الفجر وقبل بداية العمل.

وهكذا يمكن وضع الأهداف المحددة بكم وبرنامج زمنى، ويكون تقييمها دائما وفق نموذج تقييم ومحاسبة.

لقد كان النبى ﷺ يضع لنفسه ولأمته الأعمال بهذه الطريقة الكمية المحددة.

فكان يقول مثلا « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ، فَإِنِّى أَتُوبُ فِى الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّة** »[٢٣] ولا شك أن هذا منه امتثال لقوله تعالى ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ (النور : الآية ٣١) وغيرها من الآيات التى تأمر بالتوبة والاستغفار، فالقرآن يعظ ويأمر بالتقوى والتوبة والاستغفار، والنبى ﷺ كان يحوّل هذه الأوامر والتعاليم القرآنية إلى واقع عملى محدد يقوم به الصحابة رضى الله عنهم. وقال ﷺ: «**مَنْ قَالَ: (لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فِى يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ**»[٢٤].

وقال : «**مَنْ قَالَ: (سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ) فِى يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ**»[٢٥].

٢٣- رواه مسلم : الذكر والدعاء ـ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٩/ ٢٩ - ق٢٧٠٢).

٢٤- رواه البخارى: الدعوات ـ باب فضل التهليل(١١/ ٢٠٤ - ق٦٤٠٣) ومسلم: الذكر والدعاء ـ باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء(٩/ ٢١ -ق٢٦٩١).

٢٥- رواه البخارى: الدعوات ـ باب فضل التسبيح (١١/ ٢١٠ - ق٦٤٠٥) ومسلم : الباب السابق.

وقال ﷺ «مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِى دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»[٢٦].

وقال: «مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»[٢٧].

وبعض الناس يحصر نفسه على هذه الإجراءات المنصوص عليها، ولا يعتبر إلا بما ورد نصا، والصحيح أنه يقاس على ذلك إجراءات كثيرة إذا كان الإجراء الوارد لا يتفق مع ظروف الإنسان، فما المانع أن يحدد المرء الذى لا يستيقظ من آخر الليل لنفسه إجراء آخر؟ وهو أنه بمجرد رجوعه من صلاة العشاء يدخل على أهله ويجمع أولاده ويصلى بهم ركعتين، وهذا من قبيل السنة الحسنة ما دامت أنها لا تخالف نصا شرعيا ولا تأتى بما تأباه النصوص والقواعد الشرعية المقررة، فهذا الصنيع يؤيده عموم الشرع ومقرراته.

نعم يجوز هذا ما دام أن المسلم لا يدّعى أن تحديده هذا هو السنة، فهو تحديد مبنى على مراعاة ظروفه وأوقاته وطاقته على العمل، وليس ملزما لغيره فى هذا، كما يحدد كل واحد من النفس هو وردا معينا من القرآن، فيحدد الكم والوقت الذى يقرؤه فيه طبقا لظروفه، وكلنا يفعل هذا دون أن يدّعى أن هذا التحديد بهذا الخصوص سنة، نعم الفعل فى مجمله سنة أما التحديد فهو خاص بالشخص، فقراءة القرآن سنة ومن أفضل القربات إلى الله تعالى، ولكن قراءة جزء (ثمانية أرباع) كل يوم وبعد صلاة العصر تحديدا بعد العودة من العمل ـ هذا التحديد خاص بالشخص ولا يُدّعَى أنه سنة.

ولكن اعتاد بعض إخواننا أن يدّعى بدعية كثير من الأمور بدعوى أنه لم يرد عن النبى ﷺ هذا التخصيص بهذه الكيفية، وهو اتجاه منتقد ومغلوط ولا تسعفه النصوص الشرعية.

٢٦- رواه مسلم: المساجد ـ باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٣/ ١٠٢ - ق٥٩٧).

٢٧- رواه أبو داود: الصلاة ـ باب الحث على قيام الليل (٢/ ٧١ - ق١٤٥١) طبعة دار الحديث. وصححه الذهبى والنووى والعراقى، انظر «صحيح سنن أبى داود» للألبانى (٥/ ٥٢ - ١١٨٢) مؤسسة غراس للنشر والتوزيع ـ الكويت ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

ولا أريد أن أطيل فى هذه القضية أكثر من هذا، فقد بحثناها فى كتاب آخر[٢٨].

وخلاصة الأمر أننا نريد وفق هذا النموذج أن نحول القرآن إلى إجراءات محددة يمكن تقييمها وقياسها، ولا مانع من ذكر الإجراء على عمومه مثل (قيام الليل)، هكذا مطلقا من تحديد وقت أو عدد ركعات، ولكن كلما كان محددا كان أوقع وأقرب فى التنفيذ وأكثر فاعلية فى برمجة العقل على عمل معين.

كيف نضع إجراءات لما نهى الله عنه ؟:

ربما يكون الأمر أصعب فى وضع إجراءات لما نهى الله عنه، وتكون إجراءات محددة أيضا.

فالامتثال للنهى هو الانتهاء عما نهى الله عنه، وهذا يكون بالترك، ولقائل أن يقول : ليس هناك إجراء فعلى، لأن الترك ليس إجراء، فإذا قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ فإن المطلوب منا أن نترك التجسس، فما الإجراء فى هذا؟

والصواب أن هناك إجراءات فى هذا أيضا، حافظة ودافعة، أى تحفظ الإنسان من الوقوع فى التجسس، أو تعالج التجسس وتدفعه عن الإنسان إن كان من الواقعين فى هذا الذنب. لا بد أن نجتهد لكى نحول القرآن إلى واقع عملى مع أنفسنا ومع من نعول من أهلنا وأولادنا، ونضع لكل أمر ونهى قرآنى مجموعة من الإجراءات العملية التى تربى النفوس، وتهذب الأولاد وتغرس فيهم قيم هذا الدين الحنيف، فأولادنا لا يتعلمون بالخطب والمواعظ والتوجيه المباشر بقدر ما يتعلمون بواقع عملى وإجراء فعلى يغرس فيهم القيم.

خذ هذا الإجراء المحدد مثالا على ذلك : حين أسمع صوتا عاليا يصدر من الجيران أقول لولدى قم وأغلق النافذة، وننتقل إلى الغرفة البعيدة عن مصدر الصوت.

هذا الإجراء عملى ومحدد ويحفظ الإنسان من التجسس، وفوق كل هذا هو عمل تربوى يغرس قيمة البعد عن التجسس والفضول فى نفوس الأطفال، وربما تساءل

٢٨- بحثنا بشكل تفصيلى ما يمكن أن يكون سنة حسنة أو سيئة فى دراستنا للماجستير (البدعة فى الفقه الإسلامى) يسر الله لنا طبعها.

الولد : لماذا نفعل ذلك يا أمى أو يا أبى؟ وستكون الإجابة سهلة على الوالدين ومختصرة ومؤثرة فى قيم الولد وسلوكه بسبب ما سبقه من إجراء.

فحين نضع إجراءات نعالج بها مظاهر التجسس ومواقف الحياة التى قد تدعو إلى التسمُّع لما يقوله الآخرون ـ فإننا بذلك نقوم بواجبات هذا الدين على الوجه الأمثل.

من هذه الإجراءات أيضا التى نغرسها امتثالا للنهى عن التجسس :

إذا رأيتُ اثنين يتهامسان أقوم بالابتعاد عنهما لأترك لهما حرية الحديث.

إذا مررت ببيت وسمعت صوتا عاليا أسرع فى المشى حتى لا أسمع ما يقال.

ومن الإجراءات التى يمكن وضعها فى النهى عن الغيبة ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾:

لا أجلس فى مجلس فيه غيبة.

إذا سمعت غيبة فى مجلس أنهى عنها أو أقوم.

أقوم بالتعاهد مع المجموعة التى أصاحبها وأجلس معها دائما ألا نغتاب أحدا فى مجلسنا، وإذا حدث خطأ من بعضنا أوقفتْه بقيةُ المجموعة عن الغيبة تذكيرا له بالعهد.

أظن أن مجالس الأصدقاء إذا قامت على هذه الإجراءات كان لها شأن آخر.

وهكذا نحاول أن نجتهد فى رصد عيوب المجتمع وما يقع فيه الناس من محرمات، ثم نضع إجراءات محددة لعلاج هذه العيوب وتلاشيها ممتثلين أوامر القرآن ونواهيه.

لن يكون لأمتنا شأن، ولن تؤدى الرسالة الربانية المنوطة بها حتى يكون خلقها القرآن كما كان نبيها ﷺ كذلك.

فليس الإسلام مواعظ ومحاضرات بقدر ما هو عمل وإجراءات، يصنع من أفراد هذه الأمة رجالا صادقين.

المهـــارات :

هـذا عن الإجـراءات، والإجراء إذا تكرر صـار مهارة للعبد، ولـذا فإننا نحتاج إلى التـدرّب على الإجـراء حتى يصبح مهارة ويسـتطيع المسـلم أن ينفذه بعـد ذلك بإتقان وحرفية، دونما الشعور بأى ملل أو مشقة لأنه قد صار مهارة، هذا مما نعنيه بالمهارات.

كـما نعنى بالمهارة شـيئا آخـر فى هذا النموذج، وهـو أننا ونحن نتدبر القرآن سـنجد أمورا لا يمكن تطبيقها وجعْل القرآن واقعا عمليا فيها إلا باكتساب بعض المهارات.

فحين تدبرْنا فى بعض الورشـات قولـه تعالى ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ (قريش: الآيتان ١، ٢) ـ وجدنا أن فى هذه السورة إشارة إلى أن نهتم بمهـارة القيـام بالرحلات التجـاريـة لما فيهـا من انتعاش اقتصـادى وأمنى ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ (قريـش: الآية ٤). وإتقان هذه المهارة يحتاج إلى مجموعة من الإجراءات الكثيرة والمنظمة لكى يصبح المرء بها متقِنا لها، وليس من شأننا أن نضع تفاصيل إتقان المهارة، بل يكفينا ونحن نتدبر أن نشير إليها وإلى أهميتها انطلاقا من إشـارات القرآن ورسـائله، فهـذا فى حد ذاتـه فى غاية الأهمية حيث يشـكل العقلية ويُعرّف المسلمين بما ينبغى تعلُّمه والاهتمام به، ويضع أفراد المجتمع على أولويات القرآن فى إكسـاب المهارات ليشـجعوا الناس عليها ويوجهوا أولادهم لها، وربما يسـاهمون فى التشـجيع أو المشـاركة فى مراكز التدريـب المهنية والتنموية الخاصة بإكسـاب المهارات المختلفة.

لـن نكـون أمة راقيـة إلا باكتسـاب المهارات التـى تضعنا فى صف الأمـم المتحضرة الواعية بقيمة الإنسـان وإمكانياته الهائلة لو اسـتغلت أحسـن استغلال، فللإنسان عقل وقلـب ويد، فلـو نُمّى العقل وتَدرب عـلى التفكير والابتكار، ولو غُـذى القلبوالنفس بـروح الإيمان ووقود الأخلاق، ولو عَملت اليد واكتسـبت المهـارات ـ لقُدْنا العالم كله بالإسلام.

القرآن يقول بشأن تنمية مهارات العقل بالتفكير والتأمل ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ (سبأ: الآية ٤٦).

ويقول بشأن مهارات القلب والنفس ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس : الآيتان ٩، ١٠) ـ والتزكية تحتاج لإجراءات ومهارات وبرامج تهذيب مرتبة ومخططة ومستهدفات عمل دءوب.

وفى الحث على اكتساب مهارات اليد يقول تعالى :

﴿ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝١١ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ : الآيات ١١ -١٣). وكل هذه الأعمال والصناعات والفنون تحتاج إلى اكتساب مهارات كثيرة وعظيمة. إن أمةً تتخلف وهذا شأن كتابها فى الحديث عن العمل والإتقان ـ لجديرة بأن تسقط من حسابات الزمن ولا يكون لها قيمة بين الأمم، هذا إن لم تسقط من عين الله تعالى.

ومن ظن بعد هذا أن القرآن كتاب صلاة وزكاة وصوم وحج فحسب فقد كذب على الله تعالى وأعظم عليه الفِرية، وكانت جنايته على الإسلام لا حد لمفاسدها.

نعم القرآن يحث على المهارات واكتسابها، ويدعو قُرّاءه وأتباعه إلى تدريب العقل والقلب واليد عليها، وكلما أتقن المسلم المهارة كان أكثر امتثالا لتعاليم القرآن وتوجيهاته، فلا شك أن الإجراء إذا تحول إلى مهارة كان أوقع فى إتقان العمل وأوفر للوقت والمال.

والقرآن يؤصل لهذه المنهجية حين ذكر الله تعالى تدريبه لرسوله موسى عليه السلام على استعمال العصا قبل أن يذهب إلى فرعون ﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ (طـــه : الآيات ١٧ -٢١).

وفى موضع آخر ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴾ (القصص : الآية ٣١).

لقد علمه الله تعالى استعمالها قبل المواجهة مع فرعون وسحرته، فهب أنه لم يتدرب عليها قبل هذا اللقاء، وكان أول استعماله لها فى يوم الزينة الذى جمع فرعون فيه جنوده من السحرة لكى يهزم موسى (!) وهب أن موسى عليه السلام فر أمام فرعون والسحرة والناس الذين حُشدوا من كل مكان ليشاهدوا هذا اللقاء - فهل ستكون النتيجة كما وقعت؟!

لقد درّبه الله تعالى على استعمالها لكى يفر أول مرة - بطبيعة حال البشر - ولكى يتعرف عليها بشكل عملى، ويعرف أنها تتحول إلى ثعبان صديق، ثعبان سخره الله تعالى لنصرته لا لعداوته، فلما فر قيل له ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴾ فلما جاء اليوم الموعود الذى يدخل فيه أهل الحق مع أهل الباطل ميدان المباراة والتحدى ألقى موسى عصاه بكل قوة، وتحولت إلى نفس الثعبان، ولكن لم يكن موقف موسى عليه السلام منه نفس الموقف الأول؛ لأنه قد تدرب من قبل.

إن ميدان المبارزة بين أهل الحق وأهل الباطل لم ينقضِ بهذا المشهد، بل يظل إلى يوم القيامة، وأرى فى كثير من مشاهد الحياة اليومية ميادينَ وميادين تعد مبارزة حقيقية بين الحق والباطل، فى الإعلام والسياسة والدعوة وشتى شئون الحياة، فهل يَعقل أهل الحق الأمر ويُعْلوا من قيمة اكتساب المهارات التى تؤهلهم لهذا الميدان الذى لو تولوا عنه وخذلوا الحق الذى معهم استبدل الله قوما غيرهم، ثم لم يكونوا أمثالهم.

إن إعلاء التدريب واكتساب المهارات فى شتى ميادين الدعوة والحياة كلها هو من أولويات هذه المرحلة التى تحياها الأمة، وعلينا أن نتخذ القرآن ينبوعا فى هذا، ونتعرف على المهارات التى أشار إليها القرآن، أو المهارات التى لا بد من اكتسابها لكى نقوم بتنفيذ واجبات القرآن.

فقوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ (آل عمران : الآية ١٥٩) لا يمكن تطبيقه بواقعية وحِرفية - وخاصة على المستوى الرسمى إلا باكتساب مهارات تجهيز الأجندة وطرح

الآراء ومناقشتها وإجراء حوار جدّى حولها، والإنصات لكل ما يقال، والتصويت على الآراء بعد المناقشة، كل هذا يحتاجه الأخذ بمبدأ الشورى.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (النحل : الآية ١٢٥).

فيوم أن دعا إلى الله أناس لم يعرفوا الحكمة بمهاراتها، ولم يتدربوا على الموعظة الحسنة، ولم يمهروا فى الجدال بالتى هى أحسن ـ كان ضررهم على الدعوة كبيرا، وشوّهوا صورة الحق الذى ظنوا أنهم ينتصرون له.

خلاصة ما سبق :

وخلاصة ما سبق بشأن هذه الوحدة من النموذج ثلاثة أمور :

١ – القرآن قد أرسى مبدأ التدريب واكتساب المهارات وعلمنا أن نهتم بها، كما مر فى موقف موسى عليه السلام مع العصا.

٢ – الأوامر والنواهى القرآنية تحتاج إلى وضع إجراءات محددة أو اكتساب مهارات حتى يكون خُلقنا القرآن، كما مر بنا من إجراءات لامتثال الأمر بقيام الليل، وامتثال النهى عن التجسس والغيبة.

٣ – كثير من المهارات قد أشار إليها القرآن وعلينا أن نسجلها ونحن نتدبرلنهتم بها، ونرشد الناس إليها، من ذلك مهارة الرحلات التجارية كما فى سورة قريش.

* * *

الفصـــل الثامـن

الوحدة الثامنة من النموذج
(النموذج الحضارى وتطبيقاته)

وأخـيرا وصلنـا إلى الوحدة الثامنة والأخـيرة من هذا النمـوذج، والتى تمثل جوهرة التاج بالنسـبة له، وهى الثمرة الكبرى للنموذج كله، فكل الوحدات السـابقة ينبغى أن تصـب فيهـا، وأن تكـون هذه الوحـدة هى الغاية الأخـيرة لكل ما سـبقها من وحدات تتعلق بالفهم والإجراءات العملية.

ومـا نقصـده بالنموذج الحضـارى هو أن نحول الآيـة أو المقطع القرآنى أو السـورة القصيرة إلى نموذج يصلح للتطبيق فى مجالات أخرى، فنخرج بالآية عن سـياقها الذى وردت فيه لتكون نموذجا يُحتذى لسياقات أخرى ومجالات متعددة فى الحياة، ولا شك أننا لكى نصل إلى هذا نحتاج إلى كل معطيات الوحدات السابقة.

إذن لا نسـتنبط مـن الآيـة بهذه الوحـدة أحكاما وإنما نسـتنبط منهجيات وأسـاليب تصلح للتطبيق فى مجالات شتى.

كنا نتدبر سـورة الكوثر فى آياتها الثلاث، واستنبطت الورشة منها نموذجا حضاريا سميناه : نموذج المواساة.

فهـذه السـورة الكريمـة على قصرها تصلـح أن تكون منهجية لنا وأسـلوبا لمواسـاة الآخرين، فحين نواسى شخصا فى مصاب نسلك نفس المنهجية التى سلكتها السورة مع النبى ﷺ حين آذاه قومه وقالوا عنه : إنه أبتر (أى مقطوع النسب)، لما توفى أولاده.

ففى الآية الأولى ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ حيث ذكرت العطاء الكثير الذى يمثله حـوض الكوثر، أو يكون الكوثر نفسـه بمعنى العطـاء الكثير كما هو معروف فى اللغة، وقد قال بهذا بعض المفسرين، فالآية الأولى تمثل الحلقة الأولى من نموذج المواساة، وهى حلقة ذكر العطايا لمن نواسيه فى مقابل ما أصيب به أو أخذ منه.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ وتمثل هذه الآية التذكير بشكر النعم وتقديم العمل الصالح للمنعِم على ما وهبنا من نعم كثير، فوقت الإصابة والغم قد ينسى المرء معه ما هو فيه من نعم كثيرة ولا يهتم إلا بما أُخِذ منه، فينسى فضل الله تعالى عليه ويترك العمل، فجاءت هذه الآية نموذجا يحتذى به فى المواساة.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ يعنى أن الشر لمن عادوك ونالوا منك، ولسوف ينقلب السحر على الساحر، ولسوف يقطع الله ذكرهم من الخير، ولا يُذكرون إلا بشرّ، وهذا يمثل الحلقة أو المفردة الثالثة من مفردات نموذج المواساة، حيث التذكير بأَن الشر على من أصابك بالهمّ وعاداك وآذاك.

فإذا ما عزينا أى إنسان فى مصاب له يتعلق بإيذاء الناس له فعلينا أن نذكِّره ـ أولا ـ بالخير الكثير الذى أعطاه الله له، ونذْكر له من نعم الله عليه الكثيرة ما يعزّيه ويشغله عما أوذى به، ثم ـ ثانيا ـ ندعوه إلى أن يعمل من الصالحات شكرا لله تعالى، ولا ينسى فعل الطيبات أثناء حزنه وهمه، ثم نذكَّره ـ أخيرا ـ بأن العاقبة للمتقين، وأن من نالوا منه لن يغيبوا عن قبضة الله تعالى، ولسوف يلقون من الله تعالى جزاء ما فعلوا حتى يرتاح باله ويعلم أن الله تعالى يدبر للظالمين ويمكر بهم كما يمكرون بالصالحين.

هذه المنهجية من شأنها أن تخفف الحمل عن كل مصاب بأذى الناس، وأن تجعل العبد أكثر تحملا للأذى.

هذا ما نعنيه بالنموذج الحضارى، وقد سميناه بالحضارى ؛ لأنه من شأنه أن يصنع حضارة لهذه الأمة، وأن يرتقى بها أخلاقيا واجتماعيا وعلميا وعلى مستوى المجالات كلها.

القرآن الكريم مليء بالمنهجيات الكثيرة، والأساليب الحضارية فى شتى المناحى، وكل مقطع قرآنى أو سورة ولو قصيرة نستطيع أن نستنبط منها نموذجا يصلح لأن يشَكّل الفكر ويبنى أسلوبا فى الحياة، علينا فقط أن نجتهد فى التدبر، بخاصة فى هذه الوحدة التى تحتاج إلى تفكير وإمعان نظر أكبر، وما تدبرناه فى الوحدات السابقة سيساعدنا كثيرا فى التعامل مع هذه الوحدة.

سورة العصر ونموذج النجاح :

ملخص سورة العصر أن الله تعالى أقسم على خسران الإنسان باستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتعاونوا فيما بينهم على الحق والصبر.

نظرنا متدبرين فى هذه السورة فى (دورة معايشة القرآن) فاستخرجنا منها نموذج النجاح، النجاح بصفة عامة وليس النجاح المتعلق بالدين وعلاقة العبد بربه.

فإذا كانت السورة قد سيقت لتبيِّن الفالحين والناجحين والناجين من الخسر عند الله تعالى يوم القيامة ـ فما المانع أن تكون نفس المنهجية لنجاح المؤمنين عند الله هى نفس المنهجية للنجاح فى كافة أعمالنا المهنية والصناعية والتجارية؟ لماذا لا نعتبر السورة منهجية فى وضع أسس النجاح لأى عمل.

لماذا لا يقتدى المسلمون والشباب بسورة العصر فى كل أعمالهم ومشروعاتهم التجارية لتحقيق النجاح والقوة التى لا ننهض إلا بها، ولا نستطيع أن نعيش بديننا وننشره فى العالم إلا إذا تمسكنا بأسباب القوة التى تجبر الجميع على احترامنا.

سورة العصر مثال عظيم لنموذج النجاح، نستطيع أن نقيس عليه كل نجاح، فشروط النجاح ومعاييره طبقا لمنهجية سورة العصر هى :

١- **الإيمان بالفكرة :** فأى نجاح بدايته فكرة يتحمس له صاحبها، ويؤمن بها وتجعله يجاهد من أجلها، ويتفانى فى إقناع الآخرين بها وجذْبهم إليها، وكل أصحاب المشروعات والمؤسسات الناجحة كانت بداية نجاحهم أنهم تبنوا فكرة، آمنوا بها وعاشوا مجاهدين من أجلها، وهذا المعنى مأخوذ من سورة العصر ﴿ءَامَنُواْ﴾.

٢- **العمل من أجل الفكرة :** فالإيمان بالفكرة وحده لا يكفى لإنجاحها، فلا بد من عمل دءوب وسعى حثيث منظم ومستمر منأجل تحويل الفكرة إلى واقع عملى، وإلا ستظل الفكرة مجرد حديث نفس وخواطر تجول فى عقل صاحبها.

وهذا معنى قوله تعالى فى سورة العصر ﴿وَعَمِلُواْ﴾.

٣- **الالتزام بمعايير العمل والنظم الموضوعة لنجاح أى عمل :** فلا يكفى لتحقيق النجاح فى أى مشروع أو بناء مؤسسة أن يكون العمل ارتجاليا وعشوائيا وفق ما يمليه الهوى

والمزاج، بل لا بد من أن يكون العمل وفق نظام متبع وطبقا لما تقوله القواعد الإدارية والفنية، وأن يبدأ من حيث انتهى الآخرون وما توصلوا إليه من تجارب ومناهج ناجحة.

فالعمل وحده لا يكفى للنجاح، بل لا بد أن يكون عملا صحيحا.

وهذا المعنى أفادته سورة العصر فى قولها ﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ـ بِٱلْحَقِّ﴾ فالحق والعمل الصالح فى الشرع يعنى ما كان موافقا لمنهج الكتاب والسنة لأنهما مصدر الصالحات فى الإسلام، أما فى شئون حياتنا فمصدر الصواب والخطأ فى العمل هو العلوم والأبحاث والتجارب والخبرات، ولا مانع عندى من تسميته بالصالحات أيضا، فالصالح من العمل هو ما يصلح أن نقوم به سواء كان مصدر صالحيته الوحى أو التجارب والعلم.

٤- **التعاون على الصواب والتزام فريق العمل كله بذلك:** كل ما سبق لا بد أن يتعاون فيه الجميع، فليس التزامَ فرد أو أفراد، بل هو التزام كل فِرَق العمل، ومن حاد منهم يرده باقى الفريق إلى رشده وصوابه، وعلى القائد أن يكون منتبها لهذا، فلا يصلح عمل بدون تعاون الجميع واتفاقهم على اتباع منهجية صحيحة، يكافأ من يلتزم بها، ويعاقب من يخرج عنها.

وهذا المعنى العظيم فى التواصى والتعاون بين فريق العمل ترسيه هذه السورة العظيمة فى قوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾ مرتين، مرة مع الحق ومرة مع الصبر.

٥- **الصبر والمثابرة:** فلا نجاح بلا مثابرة، ولا إنجاز بلا صبر وتحمُّل، ومن استعجل النتائج قبل أوانها باء بالخسران، فأى مشروع يحتاج إلى نفَس طويل، وأى نجاحعظيم يفتقر إلى صبر أصحابه وعدم يأسهم وقنوطهم، وكم من فكرة عظيمة وعمل كبير لم يكتمل بسبب أن أصحابه قنطوا فى الطريق ولم يتحملوا أعباءه ومشاقه، فبالصبر والأمل وطول النفس والثبات على المبادئ والطموح العالى تنجح الأفكار الجيدة، فجودتها والعمل لها لا يكفيان لنجاحها بدون صبر.

وهذا الشرط فى تحقيق النجاح هو ما خُتمت به السورة ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

إن سورة العصر بهذا لا ترسم للمؤمنين فحسب منهجية نجاحهم فى الآخرة، بل تضع منهجية نجاح ـ أى نجاح ـ لكل من أراد أن ينجح، وعلى المؤمنين الواعين أن يتخذوا من القرآن المنهجيات والنماذج الحضارية لكى يملكوا الدنيا بأيديهم، ويحققوا الاستخلاف المنوط بهم.

إن نموذج النجاح الذى وضعته سورة العصر يصلح لأن يكون منهجا تُبنى عليه العقول، وتربَّى عليه الأجيال، لكى يعرفوا أن للنجاح شروطا وأسبابا، وأن سننه لا تتخلف عن أحد، فمن أخذ بأسبابه وُفق ولو كان كافرا، ومن تخلى عن أسبابه تخلى عنه النجاح ولو كان مؤمنا.

فمتى تتربى الأجيال على ما أرساه القرآن من نماذج تصنع حاضرهم ومستقبلهم؟ ومتى يفهمون أن كتاب الله تعالى ليس للقراءة التى يأخذون بها عشر حسنات على الحرف فحسب؟!

تكرار نموذج النجاح فى القرآن :

فى الآية أخرى يمكن استخراج نموذج للنجاح أيضا لا يخرج فى إطاره عن النموذج المستنبط من سورة العصر.

* يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ (الإسراء: الآية ١٩).

فقد اشتملت الآية ـ على قلة ألفاظها وقصرها ـ على منهجية النجاح وأركانه :

١- **المحرك والوقود لأى عمل :** ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ﴾ فالإرادة هى القوة الدافعة نحو النجاح والتوفيق.

٢- **تحديد الرسالة والهدف**، وهذا يبدو فى النص على ﴿ ٱلْأَخِرَةَ ﴾. والإرادة وتحديد الهدف هنا يقابل الإيمان بالفكرة فى سورة العصر.

٢- **العمل والسعى :** ﴿وَسَعَىٰ لَهَا ﴾ فالإرادة والنية والعزيمة على تحقيق الهدف لا يصنع شيئا بدون عمل دءوب وسعى حثيث.

فالعمل فى سورة العصر ﴿وَعَمِلُواْ ﴾ يقابل السعى هنا.

٣- **النظام واتباع القواعد :** فلابد أن يكون السعى وفق قواعد النجاح المتعارف عليها بمنهجية إدارية وفنية تخصصية، فليس كل سعى يجعل صاحبه ناجحا، والعجب أن هذا المعنى فى الآية مستفاد من الضمير فى قوله تعالى ﴿سَعْيَهَا﴾ ولم يقل : سعيه، ليعلم كل ساع للآخرة أن لها سعيها هى وفق منهج مرسوم، وليس سعيك أنت حسب هواك وما يتراءى لك.

وهذا يقابل فى سورة العصر (الصالحات ـ الحق)

٤- **الشرط :** ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فكما أن شرط قبول العمل الإيمان، كذلك شرط نجاح الفكرة الإيمان بها والدعوة من أجلها والصبر عليها والدفاع عنها.

وهذا عين ما ذكر فى سورة العصر ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

٥- **الجزاء :** ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ وهو ثمرة النجاح، وجوهرة التاج، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لسعى الآخرة، ولسعى الدنيا للآخرة.

والجزاء المنصوص عليه فى هذه الآية يقابل الجزاء المستفاد من الاستثناء فى سورة العصر، فقوله تعالى هناك ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ...﴾ يفيد أن هؤلاء من المستثنين من الخسر بما يعنى فلاحهم وفوزهم.

نموذج فض الشراكة :

تحدث القرآن الكريم عن الطريقة المثلى لفض أقدس علاقة وأوثق رباط بين اثنين، وهو رباط عقدة النكاح، وقد سماه الله تعالى فى كتابه ميثاقا غليظا كما فى قوله تعالى ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ (النساء : الآية ٢١).

* يقول تعالى واضعا المنهج لفض هذه العلاقة : ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٢٨ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ

أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (البقـــرة : الآيتان ٢٢٨-٢٢٩).

والسؤال هو : لماذا لا تكون هذه المنهجية هى الأسلوب المتبع لفض أى علاقة بين اثنين غير علاقة الزواج المنصوص عليها فى الآيتين؟ حيث نستنبط نموذجا حضاريا راقيا من تعاليم القرآن فى حل عقدة النكاح نخرج به عن إطار الزواج لنتعامل به فى كل المجالات لفض العلاقات، سواء كانت علاقة شركة وتجارة بين اثنين، أو علاقة صداقة، أو علاقة موظف بشركته ويريد أن يستقيل منها أو تريد الشركة أن تفصله من العمل.

إن القرآن ـ كما أفهم ـ حين يقرر أحكام النكاح والطلاق فإنه لا يريد منا أن نتوقف عند هذه الأحكام فى محل ورودها فحسب، بل يريدنا أن نتخذ منها منهجية تحكم مناحى حياتنا فى المواقف المشابهة، وعلينا فقط أن نستنبط ونتدبر هذه المنهجيات والنماذج التى تصلح للتعميم فى مجالات مختلفة، وبهذه الطريقة يصبح القرآن منهج حياة، ويرتقى المسلم من تدبر الأحكام والجزئيات فقط إلى تدبر المنهجيات والكليات.

لقد تدبرنا هاتين الآيتين فى (ورشة معايشة القرآن بجمعية عليين[٢٩]) وإليك النموذج الحضارى الذى خرجنا به، وقد سميناه نموذج (فض الشراكة) ومفرداته كالتالى :

١- **فترة الاختبار قبل القرار النهائى بالفض :** على كل اثنين شريكين – فى تجارة أو أى علاقة– يريدان فض هذه العلاقة أن يضعا لأنفسهما فترة اختبار قبلأن يقررا الفض النهائى، فالموظف الذى يريد أن يستقيل لتضايقه من العمل أو رئيسه الإدارى فلا يتسرع فى اتخاذ القرار، عليه أن يضع لنفسه فترة معقولة يختبر فيها نفسه، يبتعد قليلا عن العمل دون أن يستقيل، وتكون هذه الفترة بمثابة اختبار لنفسه فى بيان مدى تحمله لترك العمل.

٢٩– وهى الجمعية التى بدأت فيها تدريب الناس على هذا النموذج وانطلقتْ منها أولى ورشات معايشة القرآن الكريم.

فلماذا لا يبعد كلٌّ من الشريكين عن الآخر عند ظهور النزاع دون اتخاذ قرار بفض العلاقة؟ لماذا نقرر دائما عند الاختلاف أن يهجر أحدنا الآخر؟ ثم نندم بعد هذا القرار ونكتشف أن استمرار العلاقة كان أولى من فضها، ولو أننا أعطينا لأنفسنا هذه الفترة الاختبارية لكان أولى، حيث نختبر فيها الحياة بدون العلاقة، فإذا وجدنا أن العلاقة أفضل كان بإمكاننا العودة، لأن الفرصة حينئذ ستكون متاحة ؛ حيث إننا لم نقم بالفض، بل اكتفينا بمجرد البعد قليلا أو الحصول على إجازة بدون مرتب من العمل لمدة شهر مثلا.

إن النظام الذى وضعه القرآن لفض علاقة النكاح يعتبر نموذجا لا مثيل له لفض أى علاقة، فقد جعل الله تعالى الطلاق مرتين رجعيتين، بين كل مرة وأخرى فترة اختبار تسمى بالعدة، فهى فترة تباعد بين الزوجين ولكن مع إمكانية العودة، فهى فترة يمكن تسميتها فترة (نصف بُعْد أو نصف فض) فهى تأهيل للفض وليست فضا كاملا، يختبر الزوجان أنفسهما فى هذه الفترة ليقررا هل يمكن لهما أن يقررا البعد النهائى أم لا؟

إن هذه المنهجية التى يقررها القرآن بشأن الطلاق تصلح أن تُعمَّم وأن يجعل المسلم منها نموذجا لفض أى علاقة بينه وبين الآخرين، نعم لا يلتزم بنفس تفاصيل أحكام الطلاق، ولكن التزام المنهجية عموما سوف يقيه بلا شك من كثير من الأخطاء الناجمة عن التسرع فى اتخاذ قرار الفض بدون أن يختبر الأمر بفترة اختبار كما قلنا.

٢- **العودة بعد فترة الاختبار بالمعروف :** بعد فترة الاختبار قد يشعر المرء بأنه لا غنى له عن هذه العلاقة فيقرر العودة، ويكون رجوعه حينئذ سهلا؛ لأنه لم يقم بالفض الباتّ الذى يحُول بينه وبين العودة.

ويجب أن تكون العودة بالمعروف، دونما تجريح ولا إهانة، يكون أساسها الاحترام المتبادل من الطرفين.

وهذا عين ما قررته الآية بشأن العودة فى أثناء العدة ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾.

٣- **الفض بإحسان :** إذا ما تبين له أثناء فترة الاختبار أن الأفضل هو البت فى أمر فض العلاقة، بأن يشعر بالراحة النفسية فى هذا التباعد النصفى، فيقرر فى هدوءالاستمرار

فى البعد بقرار نهائى بعملية الفض - فعليه حينئذ أن ينجز هذا الأمر بإحسان ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾.

ومعلوم أن درجة الإحسان أعلى من درجة المعروف، وهذا من عظمة القرآن أنه يأمرنا بأن نكون فى الفض أحسن خلقا من الرجوع فى العلاقة والاستمرار فيها.

والكتاب الذى يأمر أتباعه بأن يكونوا عند الفض أفضل خلقا من حالة الرجوع فى العلاقة - لجدير بأن يسود العالم ويبنى حضارة تقوم على الأخلاق السامية والقيم الرفيعة.

لقد استعمل القرآن كلمة المعروف فى العلاقة بين الزوجين كما فى هذه الآية، وأيضا فى قوله تعالى ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ (النساء : الآية ١٩) أما كلمة الإحسان فقد استعملها القرآن مع الوالدين ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ (النساء : الآية ٣٦) فى أكثر من موضع، لأن حق الوالدين ومكانتهما أعلى من الزوجة.

وكأن الله تعالى يريدنا أن نعامل من نقطع معه العلاقة بهذه المنزلة من الإحسان والكرم، وأن نتعامل بالفضل لا بالعدل، ويؤكد هذا قوله تعالى فى نفس السياق - سياق الطلاق بعده بآيات - ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ﴾ (البقرة : الآية ٢٣٧).

فما أعظم أخلاق القرآن! وما أبعد كثيرا من المسلمين عنه!

٤- **الإفصاح والشفافية :** مما تقتضيه المروءة ومن لوازم الفض بإحسان أن يُفصح كل من الطرفين عما لديه من معلومات تفيد الآخر، ولا ينتقم أحد منهما من الآخر بالكتمان المُضر، فلا شك أن هناك معلومات وبيانات مهمة عند هذا الموظف الذى يريد أن يستقيل، أو عند هذا الشريك الذى يريد فض الشراكة فى التجارة، كمعلومات تتعلق بالعملاء أو البضاعة أو العاملين أو غير ذلك مما يتعلق بمصلحة العمل، ومن الأخلاق السامية والإحسان الذى أرشد إليه القرآن أن يفصح الإنسان عما لديه من معلومات، ولا يترك العمل أو يفض الشراكة إلا إذا تأكد أن طرف الشركة التى يعمل فيها أو الطرف الآخر فى العلاقة قد استغنى عنه وأنه لم يعد بحاجة إليه وأنه قدأوجد البديل الذى يسد محله، وقد أدلى بكل المعلومات التى تخص العمل، بل ربما

يحتاجـه العمل بعد الفض للإجابة على أى استفسـار يخص بعض المعلومات، وعليه حينئـذ ألا يكتـم مـا لديه ولو بعد تـرك العمل. يقـرر القرآن هذه المسـألة بوضوح فى الحديـث عـن الطـلاق ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فالكتـمان لا يجـوز فى حـالات وجوب الإفصـاح، والإفصاح يجب إذا تعلق به أحكام ومصالح.

هـذا هو الفقه والمنهـج الذى يجب أن يُتَّبع لمن أراد أن يفهـم القرآن ويتخذه سراجا منيرا!

٥- **رعاية الحقوق والواجبات:** سواء قرر الطرفان العودة أو فض العلاقة لا بد أن تكون هناك حقوق وواجبات، حقوق لكل طرف، وواجبات على كل واحد.

وأهـل المروءة والدين هم من يسـعون لرد الحق إلى أهلـه وعدم التقصير فيه، بل ربما يتسامحون فى حقهم ولكنهم لا يسامحون أنفسهم فى حق الآخرين، وقد قرر القرآن هذه القاعـدة ـ قاعدة الحقوق والواجبات ـ فى قولـه ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يعنى أن المـرأة لها حقوق كـما أن عليها واجبات، والواجبات التـى عليها هى حقوق للزوج، وقدم ما للمرأة من حق على ما للرجل رعاية لضعفها، فإن النظر فى حق الضعيف مقدم على حق القوى.

فالإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان يقتضيان رد الحقوق إلى أهلها.

فمـن قـرر العودة بعد فترة الاختبار فعليه أن يقـوم بواجب هذه العلاقة، وأن يكمل مسـيرته على الوجه الذى يعالج به المشـكلات التى كانت سـببا لتأزم الموقف، وفى حالة اتخـاذ القـرار بالفض فيجـب أن يكون قائما على قاعـدة الحقوق والواجبـات، فكل من الطرفـين يقـوم بواجباته نحو الآخـر، ولا يطلب أكثر من حقه، فبمثـل هذا تُبنى الأمم ويرتقى الناس، ويُرضون ربهم جل وعلا.

٦- **مراعاة حق صاحب السلطة:** فى حالة القرار باسـتمرار العلاقة بعد فترة الاختبار فإن عـلى الطرف المـرءوس أن يراعى سـلطة الطرف الرئيس، فالموظـف مثلا الذى يقرر الاسـتمرار فى الشركـة بعد الإجازة التى حصل عليهـا ـ فترة اختبار ـ عليه أن يراعى

حق شركته ورؤسائه فى العمل، فلهم السلطة عليه، نعم له حقوق عليهم ولكن السلطة والرئاسة فى العمل لا بد أن تراعَى أكثر.

وقد قرر القرآن هذا الحق للرجل باعتباره صاحب السلطة على المرأة، فبعد أن قرر قاعدة الحقوق لكل من الطرفين ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قال ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾.

كثيرا ما يكون سبب الإشكالية هو أن الموظف لا يطيع أوامر رؤسائه فى العمل، ويعتقد أنهم لا يفهمون وأنهم يقررون ما يفسد العمل، وهذا يُحدث خللا كبيرا ويوتِّر العلاقة بين الموظف ورئيسه، فإذا ما فهم الموظف حق السلطة فى الطاعة استطاع أن يعالج المشكلة، ولو تبين له سوء القرارات فبإمكانه أن يحل الموقف بشكل مختلف يقوم على الحوار وبيان وجهة نظره لا على التمرد وإعلان العصيان.

أغلب العلاقات بين أى طرفين فى مصلحة مشتركة يكون لأحدهما سلطة على الآخر، سواء بين زوجين أو شريكين فى التجارة أو بين الموظفين وصاحب العمل أو غير ذلك من العلاقات، ورعاية السلطة فى كل العلاقات وحقها فى إصدار الأوامر وأن يكون الأصل هو طاعة هذه الأوامر ـ يحل كثيرا من المشكلات وتوتُّر العلاقات.

وقوله تعالى ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ ليس ـ كما أفهم ـ مجرد تقرير حكم جزئى يتعلق بدرجة للرجل خصه الله بها، وإنما هو منهجية يضعها القرآن أساسا فى بناء العلاقات.

وتحويل القرآن إلى نماذج حضارية بفهمه بهذا الأسلوب يجعل للقرآن شأنا آخر فى حياتنا. وإذا انضاف إلى ذلك كل الآيات التى تتحدث عن نفس الموضوع فلا شك أن النموذج سيكون أكثر تكاملا فى مفرداته.

إذن قد نستخرج النموذج الحضارى من موضع واحد من خلال آيات متتالية، وقد نستخرجه من مواضع مختلفة من القرآن تتحدث عن موضوع واحد، ونستطيع بتتبع أحكام الطلاق فى القرآن كله ـ على سبيل المثال ـ أن نصنع منها نموذجا حضاريا متكاملا فى فض العلاقات والشراكات بين الناس.

فمثلا قوله تعالى فى سورة النساء ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ نستطيع أن نكمل بهذه الآيات صورة من نموذج فض الشراكة، والتى تمثل مرحلة الإصلاح بأساليبه المختلفة وتدخُّل أطراف أخرى لرأب الصدع قبل عملية الفض.

فآلية الموعظة الحسنة وإسداء النصح منهج حياة وليست مجرد أسلوب مع الزوجة عند نشوزها، كما أن توقيع عقوبة مثل الهجر بالكلام قد يكون مجديا فى هذا الشأن، فإذا لم يُجدِ الأمر قد نلجأ لتدخل أطراف مسموعة الكلمة فى عملية النزاع قبل قرار فض الشراكة، وهكذا يمكن تعميم مثل هذه الأحكام التى وردت فى سياق الطلاق على ما يشابهها من حالات ومواقف اجتماعية، وأن نجعل منها نموذجا ومنهجية متبعة جريا على هدى القرآن الكريم، فلا شك أن هذا نوع من أنواع اتباع القرآن، بل هو اتباع العقلاء الحكماء الذين لم يكتفوا باتباع الأحكام الجزئية، بل فهموا عن الله تعالى المنهج والأساليب الراقية التى تُحتذَى، وعرفوا سنن الله تعالى فى فهم الواقع وحل مشكلاته.

وأعيد القول وأؤكد على أننا لا نعنيب النموذج الحضارى الذين ستخرجه من هذه الآيات أو غيرها أن نبتدع أحكاما كأحكام الطلاق فى فض الشراكة، فلا نوجب ـ مثلا ـ فى فض الشراكة عِدة كعدة الطلاق، وإنما المقصود فقط اتباع المنهج العام فى التريث والشفافية فى الإفصاح عن المعلومات، ومراعاة الحقوق والواجبات، إلى غير ذلك مما لا يُختلف عليه.

نمـوذج العمـل الجماعـى:

مـن النماذج القرآنية التى تمثل وحـدة متكاملة عن العمل الجماعى ـ ما ذكره الله تعالى فى سورة النمل عن سيدنا سليمان عليه السلام وجيشه.

فقـد ذكـر الله تعـالى فى هـذه القصـة العجيبة مبـادئ العمـل الجماعى، وأسس بناء الحضارات والحفاظ على الأمم، فتحدث عن :

١- أساس النجاح وبناء الحضارة فى العلم ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾.

٢- توريث الأجيال للعلم والحضارة ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾.

٣- إتقان اللغات ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ﴾.

٤- توفر كافة الإمكانيات ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾.

٥- حسن الإدارة وتقسيم العمل ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾.

٦- المسئولية الجماعية التى تحتم على الفرد إسداء النصح فى احترام جمل لآخرين، كما نصحت النملة أخواتها مخاطبة لهم بأسلوب التعظيم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

٧- التماس الأعذار للآخرين، ويبدو ذلك واضحا فى قول النملة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وكأنها تقول لهم: ادخلوا مساكنكم حتى لا يدهسكم جيش سليمان، وفى حالة حدوث ذلك فلهم العذر لأنهم لا يشعرون بنا لصغر حجمنا، فهم غير متعمدين لذلك، ويبدو التماس الاعذار أيضا فى قول نبى الله سليمان عليه السلام عن الهدهد ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ فقد ترك مساحة للعذر - استثناء من الوعيد الذى توعّده به - إذا كان معه حجة فى تغيبه.

٨- المتابعة والرقابة وتفقد أفراد فريق العمل ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ ﴾ ولاحظ إيحاءات لفظة ﴿ وَتَفَقَّدَ ﴾ فكأنك تبحث عن شىء مفقود، مما يدل على شدة التحرى ودقة البحث.

٩- الانضباط والحزم ومعاقبة المقصرين ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾.

١٠- اعتبار البرهان والدليل أساسا فى الحكم على المواقف والأشخاص ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾.

١١- إنصات الرئيس إلى مرءوسيه ولو كانوا مخطئين عسى أن يكون لهم عذر، ويبدو ذلك واضحا حين استمع نبى الله سليمان عليه السلام إلى الهدهد وهو يبرر غيابه ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ إلى آخر ما قال.

١٢- كما أن فى قول الهدهد هذا إشارة إلى أن المرءوس والأقل شأنا ومكانة قد يحيط علما ببعض الأمور التى لا يحيط بها الرئيس الأعلى شأنا، ولا يُستفز الرئيس إذا قال له مرءوسه ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾.

١٣- إيمان الأفراد بالرسالة والتحمس لها والغضب من أجلها، كما كان واضحا فى كلام الهدهد حين غضب بسبب رؤيته لمن يسجدون للشمس من دون الله تعالى ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

١٤- التحقق من الأخبار والتأكد من صحتها ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

١٥- عقد الاجتماعات والتشاور فى الأمور ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾.

١٦- عدم التسرع فى إصدار القرارات، واختبار الأمر قبل اتخاذ القرار بشأنه، كما اختبرت ملكة سبأ صدق سليمان عليه السلام وقوته فى رسالته إليها ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

١٧- الإيمان بالمبادئ وعدم قبول الرشوة فيها ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾.

١٨ – القوة أساس الملك والدعوة إلى الله تعالى، فالقوة العسكرية والتكنولوجية فى غاية الأهمية للدولة ومؤسساتها إذا ما أرادت أن تتقدم وتنهض وتحقق أهدافها، وتقف نِدًّا قويا أمام أعدائها.

يبدو ذلك واضحا فيقول نبى الله سليمان عليه السلام : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾.

ثم أراد أن يُرى ملكتهم من العجائب ما يبهرها ويجعلها تخضع لسلطان دعوته ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

١٩ – عدم الاغترار بالقوة مهما عظمت ونسبة الفضل كله إلى الله تعالى ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾.

نموذج العملية التعليمية :

فى سورة الكهف فى قصة نبى الله موسى مع الخضر عليهما السلام ـ نموذج يُحتذى فى العملية التعليمية التى تتكون من عناصر ثلاثة : المعلم والمتعلم والمنهج التعليمى.

أولا : المعلــم :

فقد عرضت القصة للصفات التى يجب أن يكون عليها المعلم، وهى :

١- الرحمــة عمومــا وبالمتعلمــين خصوصــا ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾.

٢- التخصص فيما يعلِّم ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾.

٣- فهم بواطن الأمور وإدراك ما لا يدركه غيره، ويبدو هذا فى كل المواقف التى سلكها فى القصة من خرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار.

٤- تدريـب الطـلاب على الصبر والتحمـل ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾.

٥- طرح علامات اسـتفهام ومواقف تحتاج إلى جـواب، وترك فرصة للطلاب للتفكير فيها وإمعان النظر، والإجابة عليها فى الوقت المناسـب الذى يختاره المعلم ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾.

وقال بعد ذلك ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾.

٦- معرفـة إمكانيـات الطالب ومدى تحمله واسـتيعابه ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾.

٧- ترك العملية التعليمية فى الوقت الذى يثبت فيه للمعلم أن رسـالته قد وصلت وما بعد ذلك هو تزيُّد بدون فائدة ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾.

٨- التمـاس العذر للطالب عند الخطـــأ فى المرات الأولى وعدم أخذه بالسـهو من أول مرة ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾.

٩- وضع حد للأخطاء، ولتكن ثلاث مرات، كما هو مفهوم من القصة كلها.

ثانيا : المتعلم:

كما يبدو فى القصة الصفات التى ينبغى أن يكون عليها الطالب، وهى :

١ – الذهاب إلى المعلم وبذل قصارى الجهد للوصول إليه ﴿ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴾.

وقال ﴿ لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴾.

٢ – الأدب فى العرض وطلب التعلُّم من المعلم ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾.

٣ – الإصرار على التعلم رغم القيود والاستعانة بالله فى التقيد بها ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا (٦٧) وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا ﴾.

٤ – طاعة المتعلم للمعلم فيما يأمر به ﴿ وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴾.

٥ – الاعتذار بأدب عند الخطأ والنسيان ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴾.

٦ – إدراك الطالب مدى إرهاقه لمعلمه عند تكرر أخطائه ﴿ قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴾.

ثالثا : المنهج التعليمى:

١ – الصحبة بين المتعلم ومعلمه، فالعلم الحقيقى ما كان عن اتباع وصحبة ومعايشة بين الطرفين ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾.

٢ – تواصل الأجيال فى تلقى العلم، واتصال الإسناد، فكل معلم يعلّم ما قد تعلمه، ومتعلم اليوم هو معلم الغد، ومعلم اليوم هو متعلم الأمس، وهذا يبدو فى قول موسى عليه السلام السابق ﴿ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ ﴾.

٣- رسالة العلم التى تؤدى إلى الخير والرشاد واتباع الحق، فلا خير فى علم لم يُفد صاحبه رشدا ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

٤- وضع الشروط والمعايير فى العملية التعليمية، فلا بد من الالتزام من كلا الجانبين - المعلم والمتعلم - بما اشتُرط واتُّفق عليه ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

٥- التعليم بالموقف، وهذا أفضل طرق التعلم وأجدى من كثرة المحاضرات والمواعظ، وهو واضح فى كل القصة حين تعلم موسى عليه السلام من المواقف الثلاثة التى مر بها مع الخضر عليه السلام.

النماذج الحضارية البسيطة والمركبة :

النموذج الحضارى الذى نطلبه من القرآن قد يكون مركبا من مفردات عدة تستخرج من الموضوع الواحد الذى يشكله المقطع القرآنى، أو من خلال السورة الكاملة القصيرة، أو من خلال تتبُّع الموضوع الواحد فى القرآن كله، وقد سبق الحديث عن هذا النوع المركب فى الأمثلة السابقة.

أما النموذج البسيط فهوالذى يتكون من مفردة واحدة تستنبط من اللفظة القرآنية أو الجملة الواحدة، حيث نخرجها من سياقها الذى وردت فيه لنصنع منها نموذجا يطبق فى شئون مختلفة من الحياة.

وما أكثر هذا النوع من النماذج البسيطة فى القرآن الكريم !

اقرأ قوله تعالى ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ (البقرة : الآية ٢٣٧) ليتم تفعيل هذا النموذج على كل علاقة بين شخصين يحدث بينهما توتر فى هذه العلاقة، فنموذج ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ يصنع شكلا حضاريا فى إدارة الخلاف وفض الشراكات بين الناس.

واقرأ أيضا هذه النماذج الحضارية البسيطة :

﴿ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ ﴾ (آل عمران : الآية ١١٣) فهو نموذج لعدم التعميم فى كل شئون الحياة.

﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ ﴾ (البقرة : الآية ٢٢٣) نموذج للتمهيد والتقديم فى كل شىء.

﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ ﴾ (التحريم : الآية ٣) نموذج للتغافل عن بعض مفردات اللوم، فكما قالوا : ما استقصَى كريمٌ قط، يعنى أن الكريم حين يعاتب يذكر بعض الأخطاء التى يعاتب عليها ويتغافل عن بعضها الآخر، ولا يذكر كل شىء.

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ (الشعراء : الآية ١٨٣) نموذج لعدم بخس الناس حقوقهم فى كل شيء وإن لم يكن فى أمر الموازين والبيع.

﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ (الحجرات : الآية ٦) نموذج للتحقق والتثبت فى كل شىء، وإن لم يكن فى نقل أخبار الفساق الوارد فى الآية.

فهذه العبارات القرآنية هى بذاتها نماذج، سيقت لكى تكون كذلك، فاستخراج المنهجيات منها واعتبارها نماذج وقواعد ليس بالأمر العسير فى الفهم والاستنباط. وخلاصة النموذج الحضارى فى هذه الوحدة من نموذج معايشة القرآن ـ أننا نصنع من كتاب الله تعالى منهج حياة وطريقة تفكير، نجعل القرآن محور حياتنا تلتف حوله شتى شئوننا.

إن الأمة الإسلامية يوم أن كانت قرآنية التفكير والمنهج سادت الأمم كلها، وهابها الجميع، ويوم أن استبدلت به مناهج أخرى وطرائق مستهجنة تخبطت فى طريقها، وصار التيه والضلال مآلها.

اللهم أعد لأمتنا رشدها باتباعها كتاب ربها، وألهمها الصواب والرشاد.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة : الآية ٢٠١).

خاتمة

أخيرا وبعد هذه التطوافة مع معايشة القرآن الكريم نود أن نشير إلى بعض الأمور :

١ - يغذى هذا النموذج الجوانب الثلاثة من الإنسان، جانب الشعور والإحساس، وجانب العقل والفكر، والجانب العملى.

فيتعايش المسلم مع القرآن الكريم فى إيحاءات ألفاظه وعباراته، ويستحضر من المعانى ما يجعله يتفاعل مع الآية الكريمة.

كما أنه يطلق لعقله العنان فى التفكير فى القرآن واستنباط العلاقات وتبرير المغايرات، واستنباط السنن، ومعرفة الأحكام بمقاصدها.

وأخيرا يضع المسلم الإجراءات والمهارات التى يحول بها القرآن إلى واقع عملى بناء على الفهم العميق للآية من خلال الوحدات الأولى من النموذج.

ثم يرتقى فيجعل من القرآن نماذج منهجية وعملية لشتى مجالات الحياة من خلال استنباط النموذج الحضارى، ولا شك أننا لن نصل إلى هذه المرحلة إلا بعد الفهم العميق من خلال الوحدات السابقة كلها.

٢ - وحدات هذا النموذج تعد مفاتيح للتدبر، فهى حقيبة به أدواتك ومستلزماتك، كالحقيبة التى تجدها مع أى صاحب حرفة، حين يمارس مهنته يفتح حقيبته أمامه، ويستخرج منها من المفاتيح أو الآلات ما يحتاج إليه، وقد لا يستخدم بعضها أحيانا، وأحيانا قد يكون مستخدما لبعض الآلات أكثر من بعض.

وهكذا الأمر مع متدبر القرآن، عدته وآلاته وحدات هذا النموذج، فقد يتعامل مع الآية كريمة فيحتاج بعض وحدات هذا النموذج دون بعض، أو تنفعه وحدة أكثر من غيرها بشأن هذه اللفظة أو العبارة القرآنية، فقد يكون فى الآية مغايرة وقد لا يكون، أو

عند استدعاء استعمال لفظة منها فى القرآن كله يجد مغايرة بين مواضع الاستعمال وقد لا يجد، فإذا وجد دعاه ذلك إلى التدبر فى المغايرات.

ولا شك أنه سيستعمل أغلب الوحدات على مستوى الآية الواحدة، أما على مستوى المقطع القرآنى فإن الواقع العملى أثبت أننا نستعمل جميع الوحدات بما فى ذلك وحدة النموذج الحضارى.

سئلت فى بعض لقاءات شرح هذا النموذج : أحيانا لا نستطيع فى بعض الآيات تفعيل بعض الوحدات، فماذا نفعل؟

وكانت الإجابة لا تخرج عما سبق، فهذه أدوات استنباط ووسائل للتحليل، قد تحتاج بعضها أحيانا وقد لا تحتاج، ولكنك لن تعدم احتياجها كلها على مستوى السورة كلها أو المقطع كله.

والناس يتفاوتون فى التدبر والتفكر، فقد تجد واحدا استطاع أن يستخدم من الوحدات ما لم يستطعه غيره فى الآية الواحدة، وكل ميسر للخير، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فالمهم أنها أدوات تحليل تلفت الانتباه إلى أن القرآن به من المعانى والكنوز ما يمكن استخراجه عن طريق استدعاء الاستعمال أو التفكر فى العلاقات أو غير ذلك من بقية وحدات النموذج.

٣- لا يجب أن تكون مرتبا فى التدبر وفق ترتيب هذا النموذج، فاقرأ الآية الكريمة وأطلق لنفسك العنان فى التدبر، وسجل كل ما تستحضره من تأملات مستخدما وحدات هذا النموذج، فقد تستعمل وحدة الأحكام قبل وحدة العلاقات، وقد تستنبط معنى بناء على استخدامك لوحدة القيم المقاصدية قبل أن تستخدم وحدة السنن والقوانين، المهم أن تتدبر، وما يفتح الله تعالى به فابدأبتسجيله فورا.

إلا أنك غالبا ستبدأ بالوحدة الأولى لا سيما ما يتعلق باستدعاء المعانى والإيحاءات ؛ فهى أول ما يفاجئك فى الآية الكريمة، أن تعيش مع ألفاظها ومعانيها، وغالبا ما ستنهى

تدبـرك بوحدة النموذج الحضارى كما أثبت ذلك الواقع العملى فى التعامل مع النموذج ممن سبقوك.

وسـوف نعرض فى الصفحة التالية نموذج التسجيل الذى نقوم بكتابة منتجات التدبر فيـه، فحين التدبر فى ورشـة المعايشـة يكون هناك كاتـب عنده القدرة عـلى الكتابة بسرعة وصياغـة ما يقال بـدون أن يفقد التركيز والتفاعل مع الورشـة، فيشـارك بالحوار ويكتب خلاصة ما يقال أيضا.

وفى النهـاية هذا ما تم تسـطيره بشـأن شـــرح نموذج (التحليل المنظومى والنموذج الحضـارى) راعيـت فيـه الاختصـار فى الـشرح، واقتـصرت مـن الأمثلة عـلى ما يحقق المقصود، ونرجو من الله تعالى أن يوفقنا فى كتب قادمة فى معايشـة القرآن تكون تطبيقية على سور كاملة أو موضوعات من القرآن الكريم.

والله تعالى أسأل أن يتقبل هذا العمل وأن ينفع به مؤلفه وقارئه.

نمـوذج التسجيـل

التحليل المنظومى والنموذج الحضارى															
ألفاظ الآية الكريمة			العلاقات		المغايرات		السنن والقوانين الحاكمة		الأحكام		القيم المقاصدية		الإجراءات والمهارات		النموذج الحضارى وتطبيقاته
	فى المعانى والإيحاءات	فى الاستعمالات	بين الجمل	بين الآيـات	فى الموضع	بين المواضع	فى البشر	فى الأشياء	الخبرية	الإنشائية	الجزئية	الكلية	الحافظة	الدافعة	
الحمد															
لله															
رب															
العالمين															
الرحمن															
الرحيم															
مالك															
يوم															
الدين															

الفهـــرس